الخلافة

تاريخ الحضارة الإسلامية حتى آخر العهد العثماني

توماس آرنولد



الخلافة

تاريخ الحضارة الإسلامية
حتى آخر العهد العثماني

* اسم الكتاب: الخلافة/ تاريخ الحضارة الإسلامية حتى آخر العهد العثماني

* التأليف: السير توماس آرنولد

* الترجمة: محمد شكري العزاوي - الأستاذ غانم النقاش

* الطبعة الأولى: لشركة الورّاق للنشر 2016

* تصميم الغلاف دار الورّاق

warrak123@gmail.com

www.alwarrakbooks.com

www.facebook.com/warrakbooks

ISBN: 978-9933-521-47- 9

التوزيع

شركة دار الورّاق ش.م.م

بيروت خلدة طلعة مبرة الإمام الخولي

بناية: موسى صالح

هاتف: 009611341927

فاكس: 009611750053

شركة بيت الورّاق

للنشر والتوزيع المحدودة

العراق بغداد شارع المتنبي

تلفون: 009647702749792

009647801347076

Alwarrak Publishing Ltd.

26 Eastfields Road

London W3 0AD-UK

Tel: 00442087232775

Fax: 00442087232775

warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع

بيروت الحمرا بناية رسامني طابق سفلي أول

ص.ب: 6435-113 بيروت لبنان

هاتف: 009611750054

فاكس: 009611750053

e-mail: info@alfurat.com

السير توماس آرنولد

الخلافة

تاريخ الحضارة الإسلامية
حتى آخر العهد العثماني



المحتويات

المقدمة

إنَّ كتاب (الخلافة) الذي نشره السير توماس آرنولد عام 1924 وأطروحة معالي السنهوري باشا التي وضعها بهذا الاسم أيضاً عام 1926 هما أوسع المراجع المؤلفة حديثاً بهذا الموضوع. وإنْ تشابَه المؤلفان في التقصي والتعمّق فهما يختلفان في أمر جوهري له خطره في النتائج التي أستخلصها: فالأستاذ آرنولد يحاول أن يلتزم الحياد والموضوعية في البحث لكنَّه يفرط في ذلك حتى ينقلب حياده أحياناً إلى شيء يشبه التهجّم والتعدّي، فهو مثلاً يشارك (كايتاني) في الأخذ بالنظرية المادية، فيزعم أنَّ الدوافع الرُّوحية كانت ضئيلة الأثر في الفتوحات العربية الإسلامية الكبرى، التي لم تكن ـ حسب رأيه ـ إلّا نتيجة مباشرة لجدب الصحراء وجوع سكّانها وطمعهم بخيرات البلاد المجاورة لهم. ونحن كعرب مسلمين لا نُقرّ هذه المادية الخسيسة ونعتقد اعتقاداً جازماً بأنَّ الحوافز القومية والرُّوحية كان لها الأثر الأول في التوسّع العربي الإسلامي، فما كان الفاتحون الأولون طلّاب ثروة عاجلة وإنَّما استشهدوا في سبيل إعلاء كلمة الله وتحرير إخوانهم العرب الذين سيطر عليهم الفرس والـروم. وهذا هو الفارق الذي أردنا الإشارة إليه بين الأستاذ آرنولد وبين الأستاذ السنهوري الذي لم يتحلّل خلال بحثه من نزعته الرُّوحية الأصلية.

ومهما يكن من شيء فإنَّ الكتاب المعرَّب قد أوضح - بجلاء وتوسُّع - الفوارق الأساسية بين الخلافة من جهة، والبابوية والإمبراطورية الرومانية المقدَّسة من جهة ثانية. ثم استعرض آراء الفقهاء والفلاسفة في الخلافة وشرائطها ومميّزاتها، وذكر مبادئ الفرق الإسلامية المختلفة في كنه الخلافة ومعناها من (الملكيين الشرعيين) وهم الشيعة الذين أخذوا بمبدأ (الحق الإلهي) إلى (اليساريين الديمقراطيين) وهم الخوارج الذين تمسكوا بمبدأ (السيادة الشعبية Souveraintè du peuple) ونعتقد أيضاً أنَّ المؤلف يغالي بعض الشيء عندما يقرر أنَّ الخلافة كانت حكماً استبدادياً، تضع قوَّة غير محدودة في يد الحاكم وتطلب طاعة مطلقة من رعاياه: فلا يشارك المؤلف أحد في الزعم بأنَّ سلطة الخليفة يمكن أن تتجاوز أسس التشريع المقررة: فالقرآن هو دستور العرب وقانونهم المدني ومرجعهم الأعلى وهو يتطلب الطاعة لله وللرسول وأولي الأمر لكنَّه يحدُّ هذه الطاعة في حدود الشرع التي أحاطت إحاطة غريبة بجميع الحقوق والواجبات، فليس منصب الخلافة إذن منصباً استبدادياً مطلقاً طالما هو مقيد بنصوص المصادر التشريعية المتفق عليها. ورغم أنَّ بعض الخلفاء قد تخطوا أحياناً هذه الحواجز فإنَّ سلطتهم مع ذلك كانت أضيق من سلطة معاصريهم من الأباطرة البيزنطيين والكارولنجيين، فشارلمان كان يسوس الدولة بما يصدره من الأوامر الملكية التي كانت صورة لرغبات العاهل وإن عرضت قبل فرضها على المجالس العامة، بينما لم يكن هارون الرشيد يتمتع بمثل هذا الحق الواسع.

وأخيراً، إنَّ كتاب (الخلافة) هو عرض عام للحوادث الرئيسية

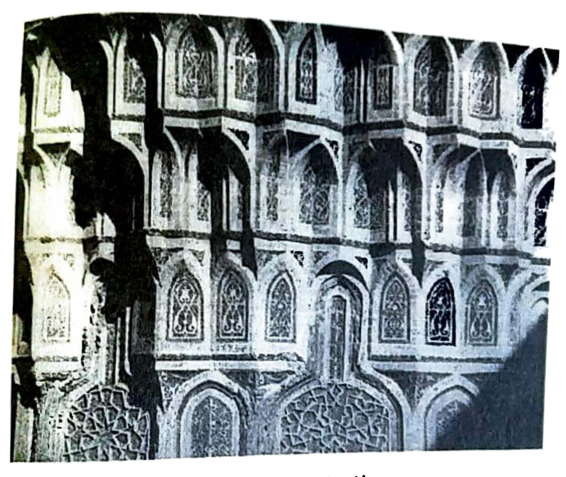
من تاريخ العرب منذ الرسالة حتى آخر العهد العثماني، وهو من هذه الناحية ذو فائدة وطرافة تعدل فائدته وطرافته ككتاب لتاريخ الحضارة العربية.

بغداد

محمَّد شكري العزاوي



قبة زمرد خاتون
التي تعرف خطأ عند الناس بقبر السيدة زبيدة
والقائمة في الجانب الغربي من بغداد



المقرنص المزخرف
في البرج الأسفل لمئذنة سوق الغزل
(جامع الخلفاء)

الخلافة والإمبراطورية الرومانية المقدسة

عاش وجهاً لوجه خلال القسم الأول من القرون الوسطى نظامان سياسيان متنافسان أحدهما في الغرب والثاني في الشرق، يجهل كل منهما مثل الآخر العليا ولا يقدرها، ويدعي كل منهما الوجود بمشيئة الله ويستشهد بكلام الله المنزل كمؤيد لسلطته. فعندما أعلن البابا إينوسانت الثالث أنَّ الإله لم يوكل إليه أمر الكنيسة العالمية فقط وإنَّما أمر حكومة العالم[1] بأجمعه فإنَّه كان يصرح بتلك العقيدة بدين عالمي كانت تتمسك به الديانة المسيحية منذ بدايتها. ونظرية الإمبراطورية المقدَّسة إنَّما استهدفت إيجاد حكومة عالمية يكون فيها الإمبراطور ملكاً عالمياً يراقب أعمال المؤمنين الدنيوية ويرشدها بسلطة يستمر اتساعها حتى يعمُّ سطح الكرة الأرضية بأكمله. وكذلك الإسلام فإنَّه دين عالمي يطالب بولاء جميع الرجال والنساء الذين عليهم إما أن يرضوا بالإسلام ديناً أو أن يدفعوا الجزية كشعوب مغلوبة. ومقابل هذا الإقرار المشترك بالعقيدة نفسها كان لا بُدَّ من وجود وحدة في التنظيم السياسي يوجب على المؤمنين الإخلاص لرئيس الجماعة الأعلى ألا وهو الخليفة.

ورغم ميزات التشابه في هذين النظامين فإنَّهما كانا مختلفين اختلافاً

---

(1) Henry Osborn Taylor. The mediaeval mind Vol. II 303 - (London 1914).

عميقاً، فالإمبراطورية الرومانية المقدَّسة لم تكن إلَّا إحياء واسعاً متعمداً لمؤسسة سياسية كانت في عالم الوجود قبل ميلاد المسيحية، فبعثت من جديد تحت طابع مسيحي خاص واتخذ شارلمان لنفسه لقباً كان يتقلده الأباطرة الوثنيون من قبله، بينما رسمت وظائف حكومة إمبراطوريته بميسم مسيحي خاص كان نتيجة لدراسته المستمرة لقانون سانت أوغستين. ولكن بجانب الإمبراطور كان شبح البابا، والبابا يملك السلطة الرُّوحية والوظائف التي كانت تنكر على الإمبراطور، وباعتباره نائب الله على الأرض كان يحكم جميع أرواح الناس ويرشدها بينما كان نصيب الإمبراطور أن يحكم ما يخصّ أجسامهم. وكان يوجد كما يعلم كل باحث في الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة، خلاف طويل حول مسألة العلاقة الحقيقية بين هاتين السلطتين المستقلتين ولم تفقد مشكلة التميز بين السلطة الزمنية والروحية من أهميتها في جميع العصور التي كانت خلالها الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة قوَّة حيَّة في أوروبا.

أما الظروف التي قامت فيها الخلافة فكانت تختلف تمام الاختلاف فقد نهضت بدون أي تصور عمدي مقصود من ظروف تلك الإمبراطورية الواسعة التي يمكن أن يُقال: إنَّها ألقيت بين أيدي العرب فالتقطوها بأقل الجهد من إمبراطوريتي فارس وروما المتنافستين المنهوكتين بالقتال الطويل، التي كانت تسعى كل منهما لتمزيق الأخرى، عدا أنَّ الإمبراطورية الرومانية كانت مذهولة بحدة الخلافات الدِّينيَّة بين الكنائس المتخاصمة والتي أزكتها الكراهية العرقية، ولم يكن بإمكان أحد أن يتوقع أو على الأقل لم يستطع أي عربي أن يتصور في مخيلته في ابتداء القرن السابع الميلادي المدى الواسع للثروة والقوة العظميين اللتين أصبحتا تحت سيطرة خلف النبي عندما كان يحكم في دمشق أو

بغداد، وخلافاً للإمبراطورية الرومانية المقدّسة لم تكن الخلافة تقليداً مقصوداً لشكل سبق وجوده من الحضارة والتنظيم السياسي بل كانت من نتائج الظروف التي كانت غريبة كل الغرابة عن العرب فطبعتها بطابعها الخاص؛ والخلافة كمؤسسة سياسية كانت إذن وليدة زمنها ولم تكن في ذاتها إحياء لأية مؤسسة سياسية في زمن أسبق.

والنظرية كما أدرجت في مؤلفات العلماء والفقهاء الدينيين كانت متقنة لكي تلائم الحوادث التي سبق وقوعها؛ وتاريخ تطور هذه النظرية غامض ولكن من المؤكّد أنّها لم تظهر في الأدب إلّا حينما أصبحت الإمبراطورية العربية حقيقة راهنة. وهذه النظرية كما نعلم أوضحت في الحديث الذي يدّعي أنّه ما فاه به النبي محمد وأصحابه الأقربون وكان يتداول شفهياً أولاً ولكنّه دوّن في الكتب الدِّينية في القرن الثالث الهجري. ويعتبر الحديث أنّه يلي القرآن الكريم في الأهمية في كُلّ أمور العقائد الدينية والتشريع والحياة الصالحة. والحقيقة فإنّ احترام الأحاديث ارتفع حتى أصبحت أوامرها على مستوى واحد مع نصوص القرآن الكريم المقدَّسة، وقد سجِّل منذ القرن الأول الهجري أنّه عندما يتوصَّل إلى تقرير في معنى القرآن الكريم فإنّ ما تحتوي الأحاديث كان جازماً ولم يكن القرآن الكريم ليحكم على الأحاديث[1]، وهكذا فإنّه من المستحيل تقدير المكان الذي تشغله الأحاديث في التفكير الإسلامي حتى يعترف بالسلطة التي خصصت لها.

وكلمة تقاليد ترجمة غير كافية للكلمة العربية (الحديث) إذا استعملت فنياً لتعني سجل أعمال وأقوال النبي لأنّ التقليد في نظام اللاهوت المسيحي

(1) Goldziher, muhammedaische Vol II p. 19. Sqq.

لم يسجل لفظه بالشكل الجازم نفسه كما في الأدب الإسلامي[1] إذ يعتقد في الفقه الإسلامي أنّ الحديث في حالات عديدة يُمثّل كلام الله الأزلي مثلما يعتقد في آية من القرآن الكريم أنّها من كلام الله الأزلي، وإذا لم تأخذ كل الأحاديث شكل الكلام الإلهي فهي معتبرة كما لو أنّها أوحيت في مادتها من الله إن لم تكن في شكلها الراهن اللفظي، وهكذا فهي تحمل معها مؤيداً من السلطة الإلهية وتستعمل مع القرآن الكريم نفسه على أنّها أسس العقيدة الدينية والعمل الديني والطقوس الدينية، كما أنّها ينبوع السياسة والقانون. وقد أوضح العلماء الأوروبيون أنّ كثيراً ممّا يدعى أحاديث وضع في مصلحة بعض الفرق السياسية والمذاهب الدينية حتى إنّ العلماء المسلمين أنفسهم اعترفوا اعترافاً صريحاً بأنّ بعض الأحاديث التي تزعم أنّها من نفس مأثور كلام النبي كانت تزويراً واضحاً ولكن عندما نسقت مجموعاتها نهائياً في القرن الثالث الهجري ثبتت دون ما سؤال واعتبرت ممّا لا تقبل أي مناقشة أو جدل.

وقد أصبح واضحاً أنّ المسائل المختلفة التي كانت تجابه المسلم حتى في زمن النبي، تلك التي ليست من نهج سياسي بل ممّا لها صلة أيضاً بتخطيط نظم العقيدة الدينية وفصل جدل ما وراء الطبيعة، لم تكن لتحلّ بقناعة بالرجوع إلى القرآن الكريم وحده، إذ لم تعترض المجتمع البدائي الذي أنزل فيه القرآن قط فكان من اللازم إذن أن يكون لدى الجماعة الدينية التي تعتمد في إرشادها على كلام الله الموحى بعض الحلول لهذه المشاكل المختلفة مكسوة بقالب من السلطة لا ريب فيه تعادل سلطة القرآن نفسه إذا أرادت أن تحظى بالقبول من نفوس

---

(1) Cardinal. B. Bellarmin. Disputationis. De controversiis Christiainae fideit. I. p. 147 (roma 1892).

المؤمنين. وهذه الحاجة العقلية والعملية هي التي أدَّت إلى قيام أدب الأحاديث وطالبت له بامتياز لا ينتقد، وأحاديث كهذه حول نظرية الخلافة كان لزاماً أن تقبل كأمور دينية ولها أن تطلب إخلاص المؤمن التام لها.

وبقطع النظر عن قضية مبدئها فنظرية الخلافة تختلف عن نظرية الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة، فالمسلم السُّنيّ لم يقل قط بوجود أي منصب يُقابل منصب البابا، بينما خُصص لدى الشيعة للإمام مركز فخم من السلطة باعتباره موضّح الحقيقة الإلهية، بينما اعتبر الوحي الإلهي منتهياً بختام القرآن والحديث عند السُّنيِّين (الذين إليهم يعود أمر الخلافة التاريخية مدار بحثنا الحاضر)، وعهد بمهمة تفسير مصادر الحقيقة هذه إلى العلماء الدينيين وليس للخليفة فيها يدان وهكذا فالخليفة - كما سنشرح فيما بعد - لم يمنح مهمات روحية، وكان يستطيع أن يؤمّ المؤمنين في الدُّعاء وفي صلاة الجماعة، ولكن هذا الامتياز كان بإمكان كل من رعاياه المسلمين أن يتمتع به، فعبد أو بدوي أو شاب أحلس ابن زنا[1] يمكنه أن يؤمّ الناس ما دامت هذه الوظيفة لا تتطلب رسالة ولا تقديساً، وما احتاج القيام بالمهام الدينية الحصول على صفة روحية معيَّنة كما يقرن ذلك في عقيدة الكهنوت المسيحي. فالإسلام لا يعرف الكهنوت وليس لديه مجموعة من الرجال فرقوا لإنجاز بعض الواجبات الدينية التي لم يسمح لمجموع المؤمنين العام أن يقوموا بها.

نعم يوجد في المجتمع الإسلامي أشخاص عرفوا بالعلماء كرَّسوا

(1) البخاري المجلد الأول، ص181 - السطر 4 - 5، وكنز العلماء المجلد الرابع - رقم 270.

انفسهم تكريساً تاماً لدراسة الدِّين، عملوا فيه بتضحية ذاتية وهم أهل لكل شكر، ولكن هؤلاء الرجال كما يستدلّ من اسمهم إنما هم علماء، وهم من عامة الناس يحترمون لأنّهم انصرفوا لدراسة كلام الله والشريعة دراسة مستمرة، ولم يفرقوا بسبب هذا النوع من الفعالية بأيّ تعيين ديني ممتاز ولم يطلبوا بأيّة طريقة كانت صلاحيات روحية أو دينية للعمل التي قد ترفعهم إلى أعلى المراتب في التنظيم الكنسي فيما لو حوى الدِّين الإسلامي مثله وللقيام بصلاة الجمعة يومياً في الأوقات الخمس المفروضة، وجد من الملائم تعيين إمام في كُلِّ جامع يحضر في هذه الأوقات ليتمكن من إرشاد المؤمنين سواء السبيل، ولكن ليس لهذا الإمام من صفة كهنوتية ولم يعينه لهذا المنصب أي موظف أعلى، وهو رجل عامي شبيه تمام الشبه بأعضاء محضره.

ولكن لمّا كانت أشغال هؤلاء اليومية في الدُّنيا قد لا تسمح لهم بالحضور المنتظم، فقد وجد من الملائم استخدام رجل لا يعرقله مثل هذه العلاقات، ولكن كان يستطيع أي امرئ من مجمعه أن يحل محله ويقوم قياماً حسناً بكل الطقوس الدينية المفروضة ويرضي كل مطاليب الشرع، وقد ضلّ الباحثون ضلالاً كبيراً لعدم إدراكهم فقدان الكهنوت في الإسـلام، فالعقيدة الإسلامية في طبيعة الإله وصفات الألوهية المغايرة والمتميِّزة تمام التميز عن صفات الإنسان تضمن علاقة بين المرء وخالقه مختلفة كل الاختلاف عمّا يعلمه نظام ديني يحوي عقيدة التجسُّد، فالطبيعة الإلهية منفصلة انفصالاً تاماً عن الطبيعة الإنسانية، فليس بإمكان أي امرئ حسب تعاليم الإسلام السُّنِّيَّة على الأقل أن يدَّعي أنّه أقرب إلى الإله من أصحابه، فالمؤمنون جميعاً متشابهون في انقيادهم

التام للذات الإلهية[1] المستحيلة المتناول. وبناءً عليه فليس ثمة انفصال بين الشريعة والدولة في العالم الإسلامي، هذا الأمر الذي كان مصدر نزاع عظيم في المسيحية.

صحيح أنَّ العلماء المسلمين كانوا يستنكرون أساليب الخليفة وحكومته أحياناً ويطلبون تطبيقاً أوسع للشرع ويعصون موظفي الدولة، ولكن أسباب الخلاف هذه ليست بين الكهنوت والسلطات المدنية وإنَّما بين بعض عوام الناس وبين آخرين. ومن المهم إذن أن نعترف أنَّ الخليفة موظف سياسي رفيع الشأن لندرك منصب الخلافة وإذا كان بحكم منصبه يستطيع أن يقوم بمهام دينية فإنَّ هذه المهام لا تضمن له أي قوى روحية تميِّزه عن باقي المؤمنين.

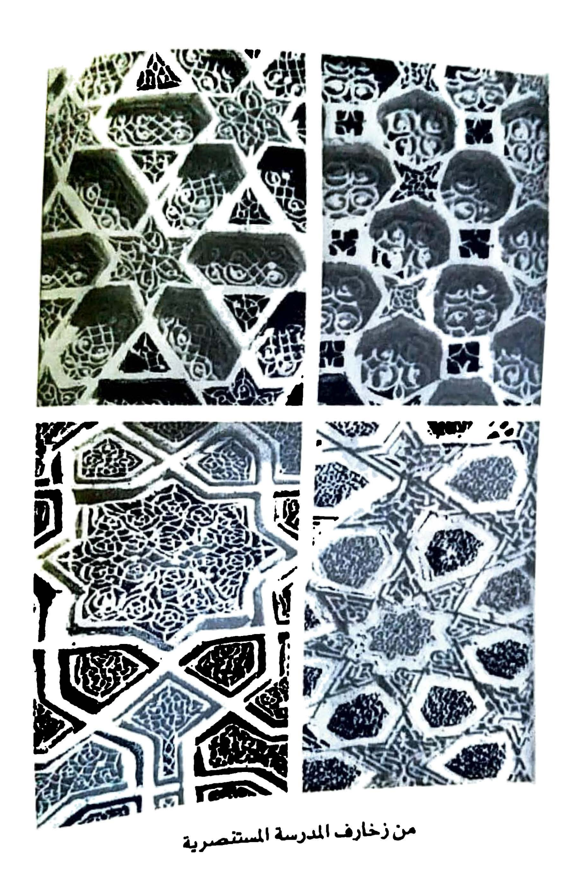
ومن جهة أخرى فالخلافة تختلف عن الإمبراطورية المقدَّسة فالإمبراطورية الرومانية هذه دثرت وقد تلاشت قبل أن يعلن نابليون تجاهله بوجودها بزمن طويل، إذ ابتكر فرنسيس الثاني لنفسه لقباً جديداً هو إمبراطور النمسا ولم يعد هناك من ملك يدَّعي أنَّه خلفٌ لشارلمان ولم يظهر أي دفاع عن النظرية السياسية التي بُنيت عليها مؤسسة الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة، ولكن الحالة بخلاف ذلك في العالم الإسلامي فلم يزل هناك مطالبون متنافسون على حيازة لقب الخلافة ولم تزل نظرية الخلافة تجد أنصاراً لها بين علماء الدِّين يتغاضون عن ظروف العالم السياسية المتبدلة ويشرحون عقيدة الخلافة كما لو أنَّهم لا يزالون يعيشون في القرن التاسع الميلادي.

---

(1) Goldziher. Of cit. vol II. Pp. 277 - 278.



منظور عام لجامع الخلفاء (الجديد)



من زخارف المدرسة المستنصرية

أصل الخلافة وألقاب الخليفة

لم يعيّن النبي خلفاً له، ومن العبث أن نتحرى لماذا أهمل رغم عبقريته في التنظيم أن يحتاط لمستقبل الجماعة الدينية التي أسسها، فقد ساءت صحته لمدة من الزمن قبل مرضه الأخير وربما كان مشوشاً في جسمه وعقله مثل (أوليفر كروmويل) فلم يتمكن من التفرغ لذلك الأمر[1] ومن المحتمل أيضاً أنّه كان نابغة عصره فأدرك قوة الشعور القبلي العربي الذي لا يعترف بمبدأ الوراثة في أشكال حياته السياسية البدائية بل كان يترك لأعضاء القبيلة أمر انتقاء أميرهم الخاص.

وحالما وصلت أخبار وفاته إلى آذان أخلص أتباعه وأول من آمن أبي بكر وعمر وأبي عبيدة، فقد عملوا حالاً على تأمين انتخاب أبي بكر طبق الخطط التي رسموها بكل تأكيد عندما توقعوا قرب أجل مؤسس عقيدتهم[2] والتحاقه بالرفيق الأعلى، فعندما سمعوا أنَّ بعض زعماء الخزرج (وهي أكبر القبائل عدداً في المدينة أيّدت قضية الإسلام) مجتمعون لانتخاب رئيس للمسلمين أسرعوا إلى السقيفة التي يعقد فيها الاجتماع وحملوا المجتمعين بعد مناقشات طويلة على انتخاب أبي بكر.

(1) Memoirs of Edmund Iudlow ed. C. h. firth, vol II - r 44 (Oxford 1864).

(2) Lammens. Le Triumvirat - Abou- baker - Omar- Abou- obeida. Melanges de la facultè orientale, beyrouth T. II. pp. 113.

ومن الواضح أنَّ الحضور كانوا قلائل، وعندما أخذ أبو بكر في الصباح مكانه على المنبر في الجامع حيث اعتاد النبي الراحل أن يُخاطب أتباعه، أهاب عمر بالمؤمنين أن يقسموا يمين الولاء لأبي بكر، وجدَّد أولئك الذين كانوا في اجتماع الليلة الماضية يمينهم التي أقسموها قبلاً وتبعهم بقية المؤمنين.

بين أيدينا في هذه الحادثة مثال لعادة عربية قديمة ينتقل بحسبها منصب رئاسة القبيلة عندما يموت شيخها إلى من كان يتمتع من القبيلة بأعظم النفوذ، فينتخب كبار القبيلة أحدهم لإملاء المكان الشاغر ويكون محترماً إمَّا لسِّنه أو لنفوذه أو لخدماته المجيدة للصالح العام. ولم يكن لديهم طريقة معقَّدة رسمية للانتخاب ولم يكن ذلك ضرورياً في مثل هذه الزمرة الاجتماعية الصغيرة. وبعد اختيار الخلف كان يقسم الحاضرون يمين الولاء واحداً إثر الآخر مصافحين إيَّاه باليد.

كان أبو بكر في العقد السادس من العمر عندما انتخب ليخلف النبي، وقد حظي بهذا الشرف مدة سنتين فقط. وحسب الحديث الذي سجَّله المؤرخون المسلمون فإنَّ أبا بكر عين عمر ليخلفه إلَّا أنَّ عمر كان مدة خلافة أبي بكر الحاكم الحقيقي. فأخذ بعد وفاة أبي بكر يقوم بوظائف رئيس الدولة قياماً مباشراً دون أي مراسيم فيكون هذا مطابقاً للعادة العربية البدائية عندما كانت وضعية فرد رفيعة تعينه ليكون الخلف النهائي لرئيس القبيلة الراحل، وبينما لم يكن بحاجة إلى مراسيم فإنَّه من الثابت أنَّ رجلاً كهذا قد يحل محل الرئيس المتوفى، وعلى بقية القبيلة أن تعبّر عن موافقتها بقسمها يمين الولاء له.

وعندما تلقَّى عمر بعد عشر سنين طعنة غادرة من يد جانٍ أثيم قيل: إنَّه عين ستة من الناخبين ليختاروا خلفاً له، وقد حام الشَّك حول حقيقة

هذه القصة وكان أقرب إلى المعقول أن يُقال: إنَّ عمر كالنبي محمد نفسه ترك الأمر بكامله بين أيدي من يخصهم الأمر[1].

وقد أشار الأمير (Gaetani) أعظم مؤرخي الإسلام الأحياء إلى أنَّ تعيين عمر لجماعة من الناخبين إنَّما كان بدعة الأزمنة المتأخرة لتبرير العملية التي سيطرت طوال العصر العباسي وهي إعلان خلافة ولي العهد من قبل الخليفة أمام كبار الدولة الذين يقسمون يمين الولاء للملك الجديد، ثم يتبع ذلك إعلان عام يذيعه على الناس بنتيجة الانتخاب ويوافق عليه بالتهليل[2] وكيفما كان الأمر فقد وجد بصورة لا تقبل الشك نوع من الانتخاب فيما يتعلق بالخلفاء الأربعة الأولين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وليس هناك أي تعاقب وراثي، ولم يتأثر اختيار هؤلاء الخلفاء بأيِّ اعتبار من نسب أو قرابة.

وسنرى فيما بعد في نظرية الخلافة أنَّ الانتخاب الشكلي كان يحتفظ به دوماً حسب رأي فقهاء السُّنَّة وكانت الخلافة دائماً وظيفة انتخابية، فكانوا يضعون القواعد اللازمة في أهلية الناخبين ولم تزل آثار من الشكل الأولي لهذه المؤسسة حتى الأزمنة الحديثة في ظلِّ السلطنة العثمانية.

انتقل منصب الخلافة سنة (661) إلى أيدي معاوية مؤسس الدولة الأموية، ومعاوية هو أول من قرر المبدأ الوراثي منذ عيّن سنة (676م) - أي قبل وفاته بأربع سنوات - ابنه يزيد خلفاً له، وجاء دمشق مندوبون عن المدن الرئيسية في الدولة ليقسموا يمين الولاء ليزيد، وعندما بايعت

---

(1) Annale dell'Islam 11 A. H. 55 aqq and 13 A. H. 15- sqq 133 sqq.

(2) Annale dell'Islam vol. vp. 48.

سورية والعراق ولي العهد أخذ الخليفة ابنه معه إلى مكة والمدينة المدينتين المقدّستين وأجبر أهلهما هناك على قبول هذه البدعة. واستمرت هذه السابقة الوراثية في الخلافة على هذا الشكل حتى الأزمنة الأخيرة من العصر العباسي، إذ كان يعلن الخليفة الحاكم خلفاً له أكبر أولاده أو أعزّهم لديه إذا أثرت العاطفة والتعصّب في اختياره، أو يعين خيرة أقاربه فيقدم قسم الولاء للأمير في العاصمة لولي العهد ومن ثم في مدن الدولة الأخرى ولكنّا لا نجد مثالاً على تعاقب الأب والابن المباشر إلّا نادراً، ففي حالة الأربع والعشرين خليفة الأولين في الدولة العباسية أعقب ستة منهم فقط أولادهم. وعندما تدهورت قوة الخلافة العباسية إلى العدم أصبح عاماً أن يعقب الابن أباه، ولكن في هذا الدور كله كانت تتمسك النظرية العباسية بأنّ المنصب كان انتخابياً.

وقبل أن ندخل في تفاصيل النظرية من الملائم أن نتمّ هذا التخطيط التاريخي لمؤسسة الخلافة، فتأسيس الدولة الأموية في دمشق دلّ على ثلمة واضحة بالنسبة لتقاليد المؤمنين الأولين الورعة الذين كان اهتمامهم في الإسلام إنّما لأنّه مجموعة عقائد وقانون أعمال أكثر من أن يكون تنظيماً سياسياً. ومن ألمع الاكتشافات التي اكتشفها المؤرخون الحديثون فيما يتعلق بالتاريخ الإسلامي هو إدراكهم أنّ توسُّع الإسلام الهائل في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي لم يكن نتيجة لحركة دينية عظيمة استفزها إيمان عميق في النُّفوس، بل كان توسُّعاً للقبائل العربية التي اخترقت حدوداً لم تستطع أن تدافع عنها الإمبراطوريتان الرومانية والفارسية المتجاورتان الضعيفتان، وقد اتضح أنّ أثر المصالح الدينية كان ضئيلاً في وعي هذه الجيوش العربية الفاتحة التي اكتسحت سورية وفلسطين والعراق وفارس إذ لم يكن هذا التوسُّع للعرق العربي سوى

هجرة شعب نشيط قوي ساقه الجوع والحاجة إلى مغادرة صحاريه القاحلة التي أجدبت بازدياد جفافها فطغى على أغنى البلاد المجاورة له وأكثرها ثروة وغنى [1].

وما دامت الحكومة المركزية في المدينة فالنفوذ الإسلامي هو المسيطر، إذ كان بإمكان أصحاب النبي المخلصين أن يحاولوا تنظيم المجتمع الجديد حسب تعاليم سيّدهم المتوفى، ولكن عندما جعل معاوية دمشق عاصمة الإمبراطورية سنة 661م تمكّنت عاطفة العرب الجاهلية أن تأخذ مكانها من جديد، وعوضاً عن المساواة النظرية لجميع المؤمنين في أخوة الإسلام فإنّا نجد العرب يعتبرون أنفسهم طبقة سامية مسيطرة تدير الشعوب المحكومة. وقد أظهروا كبرياءً واعتزازاً عظيمين بعرقهم مثل أسلافهم في أيام الجاهلية الأولى، وقبل أن يتوصل الإسلام من القضاء على هذا الغرور.

وخلال عهد الأمويين كانت النوادي الدينية في مكة والمدينة المتمسكة بالأحاديث والسُّنن النبوية الأولى تحس بأنَّ الأمويين نقلوا الخلافة إلى حكم زمن متأثر بأسباب دنيوية مطبوع بالعظمة وحبّ الذات بدلاً من أن يحتفظوا بتقوى النبي وبساطته الأولى، وقد اتهم الأمويون بأنّهم حوّلوا السلطة السامية لغرض دنيوي في منتصف الإسلام وباستثمار تراث الإسلام لمصلحة أفراد قبيلتهم الخاصة بأسرتهم. وهذا الانشقاق في الشعور بين مراكز الإسلام الستة وعاصمة الدولة العربية هو من الأهمية بمكان لمن يدرس تطور النظرية الإسلامية السياسية، إذ بينما لم تستطع نظرية الخلافة أن تتجاهل وقائع التاريخ الراهنة، إلّا أنه بدأ

---

(1) Caetani. Studi di storia Orientale T. 1 II 281-282.

التفكير الإسلامي في المدينة بكُلّ أنواعه من ديني وتشريعي وسياسي، وفي النهاية سبكت هذه النظرية دون الرجوع إلى الواقع الحيّ الراهن. ولهذا كان القانون الإسلامي نظرياً بحتاً في طابعه وقد وضع مبادئ عديدة لم تطبق قط، وبينما كان معاوية يضع أسس إمبراطورية عظيمة بعبقريته في الإدارة وكياسته ولباقته في معاملته الأرستقراطية المتغطرسة التي منها وثب هو نفسه، كان النظريون الفقهاء وعلماء الدِّين يضعون في المدينة مبادئ القوانين التي يجب أن تضبط الجماعة الإسلامية، وكانوا يضعون مخططات الأنظمة التي كانت أهميتها ضئيلة بالنسبة للحياة الراهنة لإخوانهم في الدِّين.

يستطيع الباحث المتجرِّد أن يدرك كم كان جائراً ذلك الحكم على الأمويين الذي أصدره هؤلاء العلماء الدينيون ومؤرخو العهد العباسي الذين قبلوا بوجهة نظرهم، إذ كانوا يتهمون أنَّ حياة مجتمع ديني قبلي كمجتمع أصحاب النبي الذين عاشوا في المدينة يمكن تطبيقها في الإمبراطورية الواسعة التي التهمت بلاداً اعتادت على أساليب الإدارة المتمدنة للعالم الروماني، ولم يستطيعوا أن يدركوا أنَّ مدى الفعالية التي لم يحلم بها المجتمع الإسلامي الأول في حياة النبي تتطلب أساليب في الإدارة لم يرشد إليها كلام الله المنزّل.

وقبل أن تنتهي الدولة الأموية كان الخليفة يحكم إمبراطورية واسعة تمتد من الهند وحدود الصين في الشرق إلى شواطئ الإطلنتي وشمالي أفريقيا في الغرب، وتشمل جميع بلاد الإمبراطورية المقدَّسة القديمة والمقاطعات الشرقية والإمبراطورية الرومانية ما عدا آسيا الصغرى، وقد أرسل قواده بعد احتلالهم لإسبانيا الجيوش إلى شمالي البرينيه أيضاً. استمد لقب الخلافة عظمته الدنيوية من عظمة هذه الإمبراطورية

ومن الثروة والقوة التي جلبتهما لرئيس الدولة. ففي البدء كان يدلُّ هذا اللفظ على مجرَّد خلف للنبي ومحمد كان خاتم الأنبياء[1] حسب الديانة الإسلامية وتنتهي مهمة النبوَّة بديهياً بوفاته ولم يستطع أحد من خلفائه أن يدَّعي الكلام بوحي إلهي، وكان محمد حاكماً وقاضياً ورجل إدارة وواعظاً وإماماً للصلاة العامة في الجماعة التي اعترفت بزعامته، واعتبرت هذه الوظائف منقولة إلى خلائفه واكتسبت مجداً وجلالاً زائدين في كُلِّ نصر لامع كانت تكسبه الجيوش العربية.

وصل الفرس المسلمون في ظلِّ الدولة العباسية الجديدة إلى الأوج، فانتقال العاصمة من سوريا إلى العراق وإلى بغداد بصورة نهائية سنة (762م) يدلُّ على اعتراف الدولة الحديثة باعتمادها على مؤيديها من الفرس، وبالنتيجة فإنَّ المناصب الرئيسة في الدولة شغلها رجال من أصل فارسي، ومع أنَّ شارات الحاكم الأموي كانت العصا والخاتم فقط فقد زيد في تفخيم حرمة العباسيين الدينية وأصبحت بردة الرسول إشارة لمنصبهم السامي، فكان يلبس الخليفة العباسي هذا الأثر المقدَّس يوم بيعته عندما يقدم رعاياه له لأول مرة يمين الولاء وفي كُلِّ مناسبة احتفال عندما يظهر مثلاً في الجامع ليؤم المصلين.

وقد استقبل الفقهاء ورجال العلم ـ العلم يعني في المجتمع الإسلامي علم الدِّين بصورة خاصة ـ بالترحاب في البلاط العباسي، هذا الاستقبال الذي لم يتمتعوا به قط في عهد الأمويين، وهكذا دعمت فرائض الشرع بدعامة قوية من رئيس الدولة ومن موظفيها الذين يعينهم، وجميع فروع العلوم المتعلقة بالعقيدة الدينية والشرع كانت تلقى تأييداً

---

(1) كنز العمال، المجلد الثالث رقم 2570.

عظيماً في رعاية الخليفة الكريم وكثير من الخلفاء العباسيين كانوا يتسلون بحضورهم المناقشات الدينية، وكانوا يدعون رجال العلم إلى بلاطهم وقد حصلوا على ثقافة دينية كانت تنقل إلى أبنائهم، وكانوا يظهرون في الوقت نفسه ميلهم السُّنّي باضطهادهم (الزنادقة) الضالين.

وقد أثر هذا التبجيل في الاعتبارات الدينية على وضعية الخليفة نفسه وزاد في تبجيل لقب الإمام، ويظهر هذا اللقب الأخير لأول مرة على نقود وكتابات في عصر المأمون (813 ـ 833م) وثمّة أحاديث مختلفة معزوّة إلى النبي بوجوب طاعة الإمام، لها خطورة في التبجيل الزائد الذي أصبح يمنح لهذا اللقب. وتسرّب مثل هذه الطاعة كان له كل الأثر مع ميزة أخرى للبلاط العباسي الذي يتميَّز عن روح البلاط الأموي البدوي بوجود الجلّاد إلى جانب العرش، والأمويون كعرب أقحاح احتفظوا بشيء من صراحة الصحراء، وكانوا يتحملون أحياناً كلمات جارحة من رعاياهم، ولكن الاقتراب من الخليفة العباسي كان محاطاً بسور من الأبهة والاحتفال، وبجانب عرشه كان يقف وجه الجلّاد المشؤوم يحمل قطعة من الجلد ليزهق بها روح المجرم، والإعدام بالجملة أصبح من مميزات أساليب العباسيين الإدارية، وكثيراً من الناس الذين كانوا عندما يدعون على جناح السرعة إلى القصر يأخذون الحيطة فيحملون أكفانهم معهم. وأدّى إتقان مراسيم البلاط الذي تطوَّر مع ممارسة السلطة الاستبدادية إلى زيادة الرهبة التي كانت تحيط بالخلافة لأنَّ العباسيين تبنوا المراسيم الاستعبادية للبلاط الفارسي القديم فجعلوا رعاياهم يُقبِّلون الأرض أمامهم، وأما كبار رجال الدولة أو الشخصيات الملتمسة فقد كان يسمح لهم إمَّا بتقبيل يد الخليفة أو رجله أو طرف ردائه.

وفي ظروف كهذه مع توسُّع الإمبراطورية العربية ونموِّ ثروتها انجزت نظرية الخلافة. ولم يظهر أي دليل ثابت على أنَّ هذه النظرية تعود إلى الدور الأول للتاريخ الإسلامي بينما الزمن الذي توصلوا فيه إلى تقرير نهائي فيها مشكوك فيه أيضاً، ولكنِ بعض التعابير الفنية المتعلقة بهذا المنصب وجدت في زمن مبكر بكُلِّ تأكيد، فبعد وفاة النبي سنة 632 رئي أنَّه من اللازم إيجاد اسم رسمي لزعيم الجماعة الجديد، وأمر أبو بكر أن يدعى باللقب المتواضع خليفة رسول الله، وبهذه الصورة من الصدفة اشتق اللقب الذي وصف به حكَّام إحدى الإمبراطوريات الكبرى التي رآها العالم.

كان النبي في الوقت نفسه رئيساً للدولة، ورئيساً للدِّين وكان في قبضته الإدارة الرئيسة للنظام السياسي، فكان يستقبل السفراء الذين كانوا ينقلون إليه خضوع مختلف القبائل العربية، وكان يُعيِّن الموظفين لجمع الضرائب والرسوم، وكان يمارس سلطة رفيعة في القضايا العسكرية وفي إرسال الحملات العسكرية، وكان في الوقت نفسه المشرِّع الأعلى ولم يكن يذيع القوانين التشريعية فحسب، بل كان يجلس للمحاكمة ويقضي في الدعاوى ولم يكن لحكمه استئناف. ومع قيامه بمصالح الإدارة والنظام السياسي هذه كحاكم وقائد وقاضٍ فإنَّه كان محترماً لأنَّه نبي الله الذي يوحى إليه، والعقائد الدينية التي كان يذيعها كان يقبلها أتباعه كإلهام للحقيقة الإلهية التي لا يمكن أن يشك فيها أو يختلف عليها. وكان في الوقت نفسه يقوم بأعلى الوظائف الدينية فكان يؤمّ صلاة الجماعة في الأوقات المفروضة في جامع المدينة.

وفي كل هذه الاعتبارات كان أبو بكر خلف مؤسس الدِّين باستثناء ممارسة وظيفة النُّبوَّة التي اعتبرت منتهية بوفاة النبي، واختيار اسم خليفة

كان بدون شك نتيجة لشعور متواضع من أبي بكر في الأيام العصيبة عندما كان كيان الجماعة الإسلامية الناشئة مهدَّداً، وعندما بدا لبعض المراقبين بأنَّه حكم عليها بالفناء بسبب وفاة مؤسسها، ولا نصرح بشيء جديد إذا قلنا: إنَّ محمداً لم يلاحظ في إعلانه للقرآن قط احتمال أن تصبح كلمة خليفة لقباً لخلفه، وليس من المحتمل أن يكون استعمال هذه الكلمة في القرآن أوحى إلى أبي بكر أنَّ عليه أن يُسمِّي نفسه بخليفة رسول الله، وإذا اكتسب هذا اللقب المتواضع لخلف أو خليفة رسول الله كثيراً من الاحترام والتبجيل فما ذلك إلَّا لتوسع الفتوحات العربية السريع وللثروة الهائلة والقوة العظيمة اللتين جلبتها هذه الفتوحات لحكَّام الإمبراطورية الحديثة التأسيس.

وهناك لقبان آخران اشتركا سوية مع لقب الخليفة فقد لقب الخليفة عمر الذي أعقب أبا بكر (سنة 634) في ابتداء حكمه بخليفة رسول الله ولكنه وجد حالاً أنَّ هذه التسمية كانت طويلة وغليظة فقرر أن يدعى خليفة فقط، ومنذ عهد عمر ـ عهد الفتوحات العظيمة ـ أخذ هذا اللقب منحى الكبرياء، ويُقال: إنَّ عمر تردَّد في بادئ الأمر في السماح لنفسه أن يدعى بلقب يبدو أنَّ فيه غروراً وفخراً بينما لم يكن هذا اللقب جديداً بل تلقَّب به عبد الله بن جحش أحد المسلمين الأولين والذي قتل في وقعة أحد في السنة الثالثة للهجرة بعد غارته الموفقة على النخلة[1]، وهذه الشخصية القديمة الخطورة قيل: إنَّها أولى من دعيت بهذا الاسم ويُسمِّي الحديث أحياناً آخرين به[2]، ولكن إذا تقلد رئيس الجماعة الإسلامية هذا فإنَّه يعطيه معنى مختلفاً تمام الاختلاف، والنص المتردّد في القرآن

(1) المسعودي: كتاب التنبيه، ص336.

(2) ابن خلدون: المقدمة المجلد الأول، ص462.

الكريم ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [1] دعا نفس عمر التقية أن تنكمش من هذا اللقب العاتي وأكثر من ذلك فإنَّ كلمة أمير أقل بكثير من أمير المؤمنين وخلافاً للقبين خليفة وإمام فإنه لم يذكر في القرآن الكريم قطعاً، ولكن بعد أن تبنّاه عمر أصبح من أعمّ ألقاب خلائفه وفي الحالات النادرة التي تجرأ فيها أمراء مسلمون آخرون في أن ينتحلوا لأنفسهم هذا اللقب فإنَّهم كانوا يسعون للتنصُّل من ولائهم لرئيس الجماعة الإسلامية ويعلنون استقلالهم عن الخليفة المعترف به عامة.

وبلقب أمير المؤمنين عرفت أوروبا المسيحية جميعها الخليفة في القرون الوسطى، وبهذه الأشكال الغريبة مثل إميرام موميني (elmiram Momini) وميرلومينوس (Mirluuninus) وميرالومين (Miralomin).

امتاز هذا اللقب بالسلطة الهائلة التي أنجزتها الخلافة في حكم عمر فإنَّ جيوشه اقتطعت من الإمبراطورية الرومانية أجمل مقاطعاتها في الشرق وضمّت إليها بلاد مصر الخصبة وشقّت طريقها غرباً من شاطئ شمالي أفريقيا فاحتلت فلسطين وسورية، وبعد سحق جيوش الملك الفارسي أسست الحكم العربي في كل الإمبراطورية الفارسية حتى وصلت إلى ضفاف نهر (oxus) في أقصى الشمال الشرقي.

وبينما يدلُّ لقب أمير المؤمنين على تبجيل الصفة الدنيوية لمنصب الخليفة السامي، فإنَّ لقب الإمام ينبثق من وظيفته الدينية كمرشد للمؤمنين في صلاة الجماعة، وقد ذكرت الكلمة غالباً في القرآن الكريم بمعنى قائد أو دليل أو مثال أو أنموذج، ففي سورة البقرة يخاطب إبراهيم

---

[1] سورة آل عمران، الآية 154.

بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[1] وفي سورة أخرى يوجّه الكلام إلى إسحاق ويعقوب بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ﴾[2] وفي سورة الفرقان يتمثل الصالحون بقولهم: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[3] وفي سورة الإسـراء يصف يوم الحشر بقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[4] والكلمة لم تستعمل لشخص فقط بل لشيء ككتاب منزّل كما وصف الكتاب «إماماً للناس ورحمة»[5]، وقلّما استعمل أهل السُّنَّة المتأخرون كلمة إمام أكان في معناها الواسع لأيِّ إمام لصلاة الجماعة أو في معناها الضيّق لرئيس الجماعة المسلمة السامي، يمكن اعتبارها مستعملة في القرآن الكريم لتصف أنبياء الله وشخصيات مختلفة أخرى، بل لتصف الكفرة أيضاً كما في سورة التوبة حيث يقول تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾[6].

ومن الغريب أنّنا لا نرى كلمة إمام مطلقاً في القرآن الكريم بمعناها المعروف كإمام في صلاة الجماعة، فمن المعتاد أن يقف المسلمون في صلاة الجماعة في الأوقات الخمسة المفروضة يومياً صفوفاً وراء قائد يُدعى إمام، يقف منفرداً أمام الجميع ويقوم بالطقوس المختلفة من انحناء وركوع وسجود ويتبعه الباقون فينحنون ويركعون ويمسّون الأرض بجباههم في الوقت نفسه، وقد تعوَّد النبي مدة العشر سنين من

(1) سورة البقرة، الآية 124.
(2) سورة الأنبياء، الآية 73.
(3) سورة الفرقان، الآية 74.
(4) سورة الإسراء، الآية 71.
(5) انظر سورة هود، الآية 17.
(6) سورة التوبة، الآية 12.

حينه في المدينة أن يقوم بمهمة الإمام، وكان ينتدب لهذا المنصب أحد أتباعه عندما يتغيَّب عن المدينة في حملة عسكرية ويسميه لهذه الغاية المستعجلة، وكان هؤلاء دائماً أشخاصاً مجهولين. ويُقال: إنه انتدب رجلاً أعمى ثلاث عشرة مرة وبقي هذا الرجل مجهولاً عنه تماماً ويظهر أنّه لم يرَ أي مؤرخ أهمية لذكره في سجل التاريخ والذي سهل انتخاب أبي بكر ليخلف النبي هو حادث تكليف محمد أبا بكر ليؤم الصلاة في الجامع مدة مرضه الأخير عندما كان في المدينة المقدَّسة، إذ كانت إمامة الصلاة إحدى العلائم الصريحة للمنصب الذي كان يشغله محمد كرئيس للنظام الاجتماعي والسياسي والديني الجديد في الوقت نفسه[1].

استمر الخلفاء بعد وفاة محمد واحداً إثر الآخر في القيام بهذه المهمة وقد نظر إلى هذه الزعامة في الصلاة كأنّها رمز للزعامة العامة.

وعندما توسَّعت ممتلكات العرب وأرسل العمَّال إلى الولايات ليتقلدوا زمام السلطة في البلاد التي ألحقت مجدداً، فالوظيفة الأولى التي كان يجب على العامل أن يقوم بها هي أن يظهر في الجامع ويأخذ مكانه على رئاسة جمعة المسلمين كإمام للصلاة، وقد ربطت مؤسسة أخرى رباطاً وثيقاً مع هذه الوظيفة القديمة كان لها تاريخ مفيد ومكان هام في مؤسسة الخلافة، ففي المجتمع العربي القديم كان يجلس القاضي على مقعد يُدعى المنبر ومن هناك كان يصدر أحكامه. وبقيت كلمة منبر إلى يومنا هذا تدلُّ على منصَّة الخطابة في الجامع، ولكن الجامع في زمن النبي وفي المجتمع الإسلامي الأول في المدينة لم يكن مكاناً

---

(1) Caetani Anmali Dellislam II A. II, 16.

للصلاة فقط وإنّما كان يقابل الميدان الروماني مركز الحياة السياسية والاجتماعية، ففي جامع المدينة كان يتلقّى النبي خضوع القبائل العربية المختلفة التي كانت ترسل السفراء ليقسموا يمين الولاء. وفي منبر الجامع كان يسيّر أعمال الدولة كلها ولم يكن يعطي التعليمات لأتباعه في قضايا العقيدة ورعاية الأوامر الدينية فقط بل كان يتلقّى الخطابات السياسية أيضاً.

واشتراك الجامع في الحياة السياسية والمنبر مع كرسي السلطان لم ينته بوفاة النبي، فمن منبر المدينة أعلن عمر أمام المجتمعين توقف الجيوش الإسلامية عن التقدُّم في فارس ودعا الناس للتطوع. ومن المنبر أيضاً ألقى الخليفة عثمان خطاباً يدافع فيه عن نفسه ضدّ الحملات الموجهة على أساليبه في الإدارة.

ثمَّ إنَّ هناك أمثلة عديدة مدوَّنة بأنَّ العامل الجديد لمقاطعة من المقاطعات كان يعلن عن سياسته من المنبر بعد أن يؤمّ الناس في صلاته الأولى ولكن الخليفة أبطل مع الزمن وبصورة تدريجية هذه الطريقة، فظهرت رموز أخرى لممارسة السلطة.

وهناك تعبير آخر فني قيِّم متَّصل بالمنبر ألا وهو الخطبة، وهو الخطاب الذي كان يلقى على الناس من المنبر في صلاة الجماعة كما هي الحال في أيامنا هذه وفي الماضي وخاصة في أيام الجمعة. وكان الخطيب في الجاهلية خطيب القبيلة العربية الذي كان يعمل كقاضٍ في المجتمع العربي البدائي، والكلمات التي كان يلقيها من مجلسه كانت الخطبة ـ والخطبة من فم الرسول العربي كانت خطبة سياسية ويمكن تشبيهها أحياناً بخطاب العرش، وعندما توسَّعت بعد وفاته حدود البلاد

الإسلامية وأصبح لكُلّ عامل ولاية منبره الخاص كان يتوجّه منه إلى الناس المجتمعين، وكانت تحمل خطبته هذه طابع خطاب سياسي ولكن ليس لها طبعاً أهمية بالنسبة للخطبة التي يلقيها رئيس الجماعة الأعلى.

لأسباب وظروف عديدة أضاعت الخطبة كثيراً من معناها وقيمتها الأصلية، وعندما كانت الجماعة الإسلامية في المدينة في طفولتها كان يوجد جامع واحد ومنبر واحد وشخص واحد فقط كان يلقي الخطبة وخاصة النبي نفسه، ولكن عندما توسَّعت الإمبراطورية العربية وزاد عدد الجوامع لم تعد الخطبة توجَّه لمجموع المؤمنين لأنّه صار يصدف أن يؤمّ الصلاة أشخاص قليلو الأهمية في السياسة. والخلفاء الأمويون أنفسهم كلّوا من أسلوب إعلان إرادتهم لرعاياهم. والأساليب الإدارية التي نسخت عن تنظيم الولايات في الإمبراطورية الرومانية التي أسست في حكم العرب جعلت هذا الشكل من الإعلان اللفظي لمقررات الحكومة غير لائق وغير ضروري. وعندما تضاءل دور المنبر تدريجياً بتمثيل عرش الملك أو مجلس القضاء، أصبح مجرَّد منصَّة للخطابة، وهكذا فإنَّ الخطبة بالصورة نفسها من التطوُّر أخذت طابع عظة ودعاء يُردِّدها كل من يقع له أن يؤمّ الناس، وفي الأزمنة الحديثة ولقرون خلت تتكون الخطبة من حمد الله وشكره ومن التماس الصلاة على محمد وآل محمد وأصحاب محمد، ولكنَّها احتفظت بشيءٍ من قيمتها السياسية الأولى إذ تشمل غالباً دعاء للملك الحاكم، ولدى تبديل اسم جديد في الخطبة يمكن إذاعة توليه ملك جديد أو نقل السلطان إلى حكومة أخرى، فعندما انسحب غازان خان ملك فارس المغولي (سنة 1300م) بجيوشه من دمشق وعادت هذه المدينة إلى حكم المماليك في

مصر قرنت الخطبة في الجامع الكبير باسم السلطان الناصر والخليفة بعد أن انقطع ذكرهما مدة مئة يوم[1].

وإحدى إشارات السيادة في الحكومة الإسلامية كانت دائماً شمول الخطب لاسم الأمير الحاكم في الجمعة والأعياد الكبرى، وفي مناسبات مختلفة في التاريخ الإسلامي وجدت أمثلة كثيرة من تبديل اسم بآخر تدلُّ على الاعتراف بتغيُّر الحكم. وكان ممَّا يُحيِّر الحكومات الأوروبية أحياناً في الأزمنة المتأخرة شروط إمكان ذكر اسم الملك في خطبة رعاياه المسلمين وعدمه.

كان يمكن تسمية الخلفاء الأولين بأحد هذه الألقاب خليفة أو أمير المؤمنين أو إمام، وكل منها كان لقباً لشخص واحد، لكن لقب الخليفة كان يُؤكِّد اتصال الخليفة بمؤسس الدِّين رسول الله، فتبرر هذه الخلافة حقَّه في طاعة المؤمنين له، واللقب الثاني يدلُّ على تقلده السلطات كسيِّد أعلى في الحرب ورئيس الإدارة المدنية، واللقب الثالث الإمام يوضح بالعكس الفعالية الدينية لرئيس الدولة لقيامه بوظيفة دينية محدودة، وهذا اللقب الأخير ـ أي الإمام ـ اسم مفضل لرئيس الدِّين عند الشيعة ما داموا يلقون تبجيلاً خاصاً على الاسم المقدَّس لخلفاء النبي، فينسبون إليهم قوة عجيبة خارقة تقريباً حتى إنَّهم توصَّلوا إلى الاعتقاد بوجود إمام خفي لا يراه الناس يرشد المؤمنين على الأرض ويوجههم.

وبينما كانت عقيدة الإمام لا تقل أهمية في مذهب السُّنَّة، وبينما كان لقب الإمام صفة رسمية لخليفة النبي، فإنَّ هذا الاسم لم يكن مفضَّلاً لدى السُّنَّة كما هو لدى الشيعة وربما وضع الخليفة العباسي المأمون

---

(1) مفضل بن أبي الفضائل تاريخ سلاطين المماليك، ص506 ـ طبع Blochet.

(813 ـ 833) لقب الإمام على نقوده وكتاباته بتأثير آراء الشيعة، أما نقود أسلافه فقد كانت تحمل غالباً لقب أمير المؤمنين، وكان ذلك بدون شك بسبب الطابع المقدّس الذي وسمت به مؤسسة الخلافة في ظلّ العباسيين إذ أدمج اللقب الديني ـ الإمام ـ في نقود المأمون وتبعه في ذلك خلائفه من بعده.

ويمكننا أن ندرك بعض الفروق في هذه الألقاب المختلفة حينما ينتحل بعض المدّعين لأنفسهم بأحد هذه الثلاثة، فأبو العباس السفاح أول من لقب بأمير المؤمنين عند إعلان الثورة، بينما كان يعرف أخوه إبراهيم الذي كان يلقب رغم الحزب العباسي بالإمام. وعندما ربحت حركة الشيعة في زمن متأخر عدداً عظيماً من المؤيدين من بين البربر في غربي أفريقيا فقد دعي زعماؤهم بالأئمّة، وكان أبو عبد الله جدّ الفاطميين أول من اتّخذ لقب أمير المؤمنين عندما أعلن نفسه خليفة في القيروان سنة (909م) واللقب الأخير يؤيد مظهر السلطة الزمنية مع أنّ لقب الإمام يدلُّ بالعكس على مركز الحاكم في النظام الديني[1].

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص463.

المسوغ الديني للخلافة

عندما شرع الفقهاء المسلمون في التحري عن مستند في القرآن الكريم لاستعمال هذه الألقاب لم يجدوا ـ كما بيَّنا سابقاً ـ مبرراً مهما كان نوعه لاستعمال اسم أمير المؤمنين وقليلاً جداً من المبررات لكلمة إمام، ولا واحداً منها قطعاً للأسماء التي اتصلت بهذه الكلمة، ورغماً عن أنَّ اسم خليفة والكلمات المتشابهة في المعنى والمشتقة من المصدر العربي نفسه تقع دائماً، فلا يوجد في أيِّ مثال أي توقع واضح ثابت لاستعمال فني لهذه العبارة التي اتسع شيوعها في الأدب العباسي والدِّين الإسلامي، ولكن كما أنَّ الفقهاء ورجال الدِّين في أوروبا كانوا يرجعون في القرون الوسطى إلى التوراة لتأييد حقوق الإمبراطور والبابا كليهما كذلك فإنَّ العلماء الدينيين والفقهاء في العالم الإسلامي كانوا يتحرون عن مؤيد لنظرية الخلافة السياسية في كلام الله المنزل، وسلطة القرآن الكريم بالنسبة إليهم لم تزل ذات قدر وأهمية كبيرة، ما دام القرآن نظرياً، الأساس الأول للقانون الديني والمدني.

وكثير من الآيات التي وردت فيها العبارة كانت لا تقبل أي تفسير يتصل مباشرة مع المؤسسة السياسية التي كانوا يدافعون عنها، إذ يرد معنى الخليفة والخلفاء أو الخلائف بتعابير عامة لم تكن خاصة بشخص

مفرد مبجل. وهكذا كانت الحالة في الآيات الآتية: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ﴾[1]. ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾[2].

يظهر هنا أنّه يعني جمهور المؤمنين العام الذين هم خلائف بدخولهم في إرث أجدادهم، واستعملت كلمة خليفة استعمالاً متشابهاً وبمعنى أضيق عندما يُوبِّخ الله قبيلة عاد المشركة التي ردَّت رسالة النبي الذي أرسله إليها، يقول هذا النبي واسمه هود لقومه: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾[3]. وكل ما يعني هنا أنَّ هذه القبيلة فازت بالنعم التي تمتع بها قوم نوح من قبلهم.

ثم يذكر بعد آيات قليلة نبي آخر واسمه صالح رفض قومه ـ وهم قبيلة ثمود ـ رسالته في الحقيقة الإلهية، فيدعو هؤلاء المشركين العرب ليعترفوا بالبركات التي أرسلها الله لهم ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[4] فالمعنى يعود هنا أيضاً لعدد من الناس وكلمة خليفة لا يمكن شرحها متصلة مع الخليفة التاريخي رئيس الجماعة الإسلامية السامي.

ولكنْ هناك فقرتان يمكن أن نجد في كل منهما معنى فردياً لشخص

---

(1) سورة النور، الآية 55.
(2) سورة الأنعام، الآية 165.
(3) سورة الأعراف، الآية 69.
(4) سورة الأعراف، الآية 74.

مميّز. ففي الحالة الأولى هذا الشخص هو آدم وفي الحالة الثانية داود، وقد استشهد بهاتين الآيتين وناقشها منذ أجيال كل من بحث من الكتّاب المسلمين في الخلافة لكي يدعموا عقيدتهم الممتازة في طبيعة هذه المؤسسة، والآية التي تعود إلى داود هي أبسط الاثنين: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1]. وفي فقرة أخرى يمثل الله أنّه يعلن للملائكة نيّته في خلق آدم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[2].

أنتجت هاتان الآيتان مجلدات من التعاليق، وكأن كلمة خليفة تعني هنا شيئاً ما أكثر من مجرّد خلف بينما يقول بعض المعلقين: إنّه عندما أعلن الله عن نيّته في خلق آدم دعاه خليفة لأن آدم كان خليفة الملائكة الذين اعتادوا أن يعيشوا على الأرض قبل خلق الإنسان، ولكن بعض المراجع الأخرى الإسلامية تُفسّر كلمة خليفة بمعنى وكيل ونائب وبديل وخلف، بمعنى الذي يفوز بمنصب سام، وهكذا فإنّهم يشرحون أنَّ آدم وداود سُمّيا باسم خليفة إذ كان كل منهما على الأرض نائباً عن الله في هداية الناس وإنذارهم بما أمر الله، ومن الواضح أنَّ هذا التفسير يمكن استعماله لزيادة حرمة الخليفة وسلطته.

كان من الضروري أن نلتجئ إلى الأحاديث لعرض نظرية الخلافة السياسية عرضاً واضحاً ثابتاً، وقد استخدم الحديث كأساس للبحث المنسق لعقيدة الخلافة التي عرضت في مخطوطات علماء الدِّين

---

(1) سورة ص، الآية 26.

(2) سورة البقرة، الآية 30.

الإسلامي وفقهائه، ومن المستحيل كما شرحنا آنفاً تحديد الزمن الصحيح الذي ظهرت فيه هذه الأحاديث، ولكن ممّا لا شكّ فيه أنّها ظهرت لتبرير المؤسسة السياسية التي نالت القبول من قبل جمهور المؤمنين، والنظرية بحدّ ذاتها انبعثت من الحوادث وتمثل تبلور الرأي في عقول مؤيدي الخلافة السُّنة في القرنين الأولين من التقويم الهجري، ولكن من المهم أن نستذكر أنّه رغماً من أنّ الاستقصاءات المحكمة للباحثين الأوروبيين أوضحت طابع أكثر الأحاديث التحيُّزي فإنّ المسلمين الثقات لم يشتبهوا بمصدر كهذا ولم تدخل مثل هذه الاعتبارات الانتقادية في عقولهم لتزعزع إيمانهم في المؤيد الإلهي التي تقدّمت الأحاديث.

ولا يمكن التأكيد على أنّ الشريعة والنظرية السياسية معتبرتان في العالم الإسلامي كأنّهما مشتقتان من الوحي الإلهي على مستوى واحد مع العقيدة الدينية، فالكتّاب الأوروبيون عرضة لأن يضلّوا في هذا الحادث، لأنّهم اعتادوا على أنظمة من القوانين ليست مشتقة من المصدر نفسه الذي ترجع إليه تقارير العقيدة المسيحية، لأنّ القانون الروماني كان في عالم الوجود قبل قيام المسيحية، ورغماً من أنّ بنيان الحضارة المسيحية تشربه كما تشرب المؤسسات السياسية للبربر الذين اقتحموا الإمبراطورية الرومانية فإنّه يعترف بأنّ المؤسسات السياسية المشتقة من هذه المصادر مستقلة عن الوثائق المنزلة التي أسست عليها العقيدة المسيحية، ولكن الحالة على خلاف ذلك في الإسلام إذ من القرآن تنبثق العقيدة والقانون على السواء والفقيه كالعالم الديني يأخذ كحجر الأساس لنظامه القرآن أولاً، ومن ثم الأحاديث، ويشرح الأول بالأخير في حالات التفاسير المشكوك في أمرها، والنتيجة فالفقيه الذي يبحث

في موضوع الخلافة يستطيع أن يعتبرها مؤسسة عينها الله ثم يرجع إلى وحي الله في الأحاديث ليسترشد في بيانه لها.

وتوضح الأحاديث أنَّ الخليفة يجب أن يكون من قريش التي إليها ينتسب النبي نفسه، وكانت هذه الصفة تامة في الدور التاريخي الذي سبق ذكره في أشخاص الخلفاء الأمويين والعباسيين كما كانت الحالة في أخصامهم الشيعة الفاطميين في مصر وقد سجّل هذا المبدأ بأشكال مختلفة كما يلي: الأئمّة من قريش[1]، لا يزال على الناس والٍ من قريش[2]، الخلافة في قريش والحكم في الأنصار والدعوة في الحبشة[3]، الأئمّة من قريش أبرارها أمراء أبرارها، وفجّارها أمراء فجّارها[4].

والخلافة التي عرفت هكذا كانت حكماً استبدادياً، تضع قوة غير محدودة في أيدي الحاكم وتطلب طاعة مطلقة من رعاياه، وربما كان طابع الخلافة الإسلامية الاستبدادي من تراث الملكية الفارسية التي حازت الجماعة المسلمة ممتلكاتها، لأنَّ المجتمع العربي قبل الإسلام لم يعرف قطُّ أي شكل من هذه النظم السياسية ولم تتجانس مع عقيدة القرآن في تساوي جميع المؤمنين أو مع الوضع الاستقلالي الذي يعين علاقات الخلفاء الأولين بالعرب الذين خرجوا أخيراً من الصحراء. لأنّنا نجد عقيدة قاطعة للطاعة المدنية التي يلقنها حديث بعد آخر إذ يقول رسول الله: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله،

---

(1) كنز العمال: ج6، رقم 3452.
(2) المصدر نفسه، ج6، رقم 3469.
(3) المصدر نفسه، ج6، رقم 3429.
(4) المصدر نفسه، ج3، رقم 2983.

ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعصي الأمير فقد عصاني»[1]، ثم يقول رسول الله: «سيكون بعدي أمراء فأدّوا لهم طاعتهم فإنَّ الأمير مثل المجن ويتقى به، فإن أصلحوا وأمروكم بخير فلكم ولهم وإن أساؤوا وأمروكم به فعليهم وأنتم منه براء»[2]. «أطيعوا أمراءكم مهما كان، فإن أمروكم بشيء ممَّا جئتكم به فإنَّهم يؤجرون عليه وتؤجرون بطاعتهم، وإن أمروكم بشيء ممَّا لم آتكم به فإنَّه عليهم وأنتم منه براء ذلكم بأنَّكم إذا لقيتم الله قلتم: ربّنا لا ظلم فيقول: لا ظلم فتقولون: ربنا أرسلت إلينا رسلاً فأطعناهم بإذنك واستخلفت علينا خلفاء فأطعناهم بإذنك وأمرت علينا أمراء فأطعناهم لك، فيقول: صدقتم هو عليهم وأنتم منه براء»[3]، وقال النبي أيضاً: «أطع كل أمير وصلِّ خلف كل إمام ولا تسبّنّ أحداً من أصحابي»[4].

ولم يكن الخليفة فقط ولكن كل سلطة مؤسسة قانونياً كانت تتلقّى طاعته الرعية لأنَّ النبي يقول في بعض الأحاديث: «يا أيُّها الناس اتقوا الله وإنَّ أمر عليكم عبد حبشي مجدع فاسمعوا له وأطيعوا»[5].

وكأنَّ هذه النظرية تدلُّ على أنَّ الله يعين السلطة الزمنية بكاملها، وواجب الرعية الطاعة أكان الحاكم عادلاً أو ظالماً، لأنَّ المسؤولية أمام الله والرضى الوحيد الذي يستطيع أن تشعر به الرعية هو أنَّ الله سيجازي الأمير الظالم على أعماله السيِّئة مثلما يكافئ الأمير الصالح. ويبدو أنَّ

(1) كنز العلماء: ج3، رقم 2999.
(2) المصدر نفسه، ج6، رقم 2580.
(3) المصدر نفسه، ج3، رقم 3008.
(4) المصدر نفسه، ج3، رقم 3003.
(5) المصدر نفسه، ج3، رقم 3005.

مثل هذه العقيدة مبنية على الحديث التالي حيث يقول النبي: «إذا أراد الله بقومٍ خيراً ولّى عليهم حكماءهم وقضى عليهم علماءهم وجعل المال في سمحائهم، وإذا أراد الله بقومٍ شرّاً ولّى عليهم سفهاءهم وقضى بهم جهالهم وجعل المال في بخلائهم»[1].

وفي حديث آخر يتنبأ النبي عن مستقبل الجماعة المسلمة والاضطرابات التي قد تسبق ظهور المهدي فيقول: «أبشركم بالمهدي يُبعث في أمتي على اختلاف من الناس وزلازل، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت جوراً وظلماً، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، يقسم المال صحاحاً، أي بالتسوية بين الناس ويملأ الله قلوب أمة محمد غنى ويسعهم عدله حتى يأمر منادياً فينادي فيقول: من له في مال حاجة، فما يقوم من الناس إلا رجل، فيقول: ائت السدان فقل له إن المهدي يأمرك أن تعطيني مالاً فيقول له: احث حتى إذا جعله في حجره وأبرزه ندم فيقول: كنت أجشع أمة محمد نفساً أو عجز عني ما وسعهم، فقال فيرده فلا يقبل منه، فيقال له: إنا لا نأخذ شيئاً أعطيناه. فيكون كذلك سبع سنين أو ثمانٍ سنين، ثم لا خير في العيش بعده».

ودعمت الوضعية المبجلة التي منحها الخليفة والطابع المقدّس الذي خصص لمنصبه أيضاً باسم آخر في زمن مبكر ألا وهو ظلّ الله على الأرض، ومهما غالى المتخلفون في الأزمنة المتأخرة في تفسير هذه العبارة فمعناها الأصيل أنَّ الحماية التي تعدّها السلطة الزمنية شبيهة تماماً بالحماية التي يمنحها الله للناس. فظلّ الله لم تعيّن في الأصل طبعاً الظلّ الذي أعدّه الله ولا الظلّ الذي يلقيه الله عن نفسه بأيِّ معنى إنساني،

---

(1) كنز العمال: ج14، ح 38706.

فكلمة ظل تعادل معنى الملجأ مثلما يمكن للإنسان أن يحتمي من حرارة الشمس المشعّة فهكذا الحكومة يمكنها أن تدفع الأذى عن رعيتها[1]. والتصقت بهذه العبارة في الأزمنة المتأخرة معانٍ عجيبة، فعندما أحضر ثائر أمام الخليفة المتوكل سنة 849 نادى الخليفة أنّه كالحبل المنصوب بين الله وخلائقه[2].

وقد شمل هذا المنصب بتبجيل مشابه عندما بدئ بتسمية الخليفة بخليفة الله، فيُقال: إنّ أبا بكر احتجّ على مناداته هكذا[3] مدعياً أنّه خليفة رسول الله فقط بالرغم من أنّ هذا الاسم ذكر قبلاً سنة 656 في رثاء الشاعر حسان بن ثابت[4] الذي عاصر النبي للخليفة عثمان، ومن المحتمل أن تكون هذه العبارة أخذت بمعنى نبي الله (بموافقة الله) في هذا الدور البدائي. ومن المحتمل أنّه عندما أضحت الإمبراطورية غنية وأصبحت حاشية الخليفة الرسمية أكثر أبهة وجلالاً أخذت العبارة معنى وكيل أو بديل أو نائب واحتج أكثر من فقيه على هذا الاستعمال[5]، بحجّة أنّ الميت والغائب فقط يقدران أن يخلفا وأنّه لا يمكن مطلقاً افتراضه في أيٍّ من ذينك الشرطين[6].

وأصبح هذا الاسم عاماً في زمن العباسيين حتى إنّ المنصور

---

(1) Goldziher: dusens proper des expressions ombre de Dieu,khalife de Dieu pour designer les ehcfs dans L'Islam. Revue de l'histoire des religions T-xxxv (1897).

(2) الطبري: ج3، ص(13ـ14) 1387.

(3) كنز العمال: ج3، رقم 2237.

(4) ابن ظفر سلوان المطاع: ص24 (تونس 1279 ب. هـ).

(5) Goldziher oq cit p.6.

(6) الماوردي: ص22.

الخليفة الثاني من هذه الدولة كان أعلن في خطبة سنة 775 أنّه سلطان الله على الأرض[1] ولكن هذه العبارة الشائعة أضحت في زمن خلائفه مجرّد اصطلاح فاتّخذ هذا اللقب بعد العباسيين كما سنرى فيما بعد، أمراء عديدون في عصور متعاقبة انتحلوا لأنفسهم لقب الخليفة بعد انشقاقهم عن الإمبراطورية العباسية.

والطابع التحيُّزي لبعض الأحاديث يظهر بوضوح في تلك التي تبجل العباسيين بإهانة الأمويين إذ يقول رسول الله: رأيت بني مروان يتعاورون على منبري فساءني ذلك ثم يقول: ورأيت بني العباس يتعاورون على منبري فأسرني ذلك ثم يقول: يلي ولد العباس كل يوم تليه بنو أمية يومين ومن كل شهر شهرين[2].

فأحاديث كهذه ظاهرة في كونها إبداع بعض المؤلفين العباسيين الذين كانوا يهزؤون من بني أمية، وهناك أيضاً أحاديث تتنبأ بأنّ الخلافة ستبقى في حوزة العباسيين حتى يتنازلوا عنها للمسيح أو للمهدي: الخلافة في ولد عمي وصنو أبي حتى يسلموها إلى المسيح[3] ثم يمثل النبي أنّه قال: إذا سكن بنوك السواك ـ السهل الرسوبي في العراق ـ ولبسوا السواد وكان شيعتهم أهل خراسان فلم يزل الأمر فيهم حتى يدفعون إلى عيسى ابن مريم[4]. فتوضح أحاديث كهذه كيف انبثقت النظرية عن الوقائع التاريخية الراهنة، فقد ذكرت لدعم ما أضحى حكماً مطلقاً بينما تحتفظ بمظهر من نظام الانتخاب السياسي القديم بقطع النظر عن طابعها الاستبدادي.

---

(1) الطبري: المجلد الثالث، ص426.
(2) تاريخ الخلفاء: للسيوطي، ص6 ـ 7.
(3) المصدر نفسه، ص3.
(4) المصدر نفسه، ص7.

وفي حالة واحدة كانت قوة الخليفة المطلقة الاستبدادية محدودة، فهو مثل كل مسلم آخر مضطر أن يخضع لأوامر الشريعة أي قانون الإسلام. وقد نتج هذا التحديد عن طابع الشريعة الخاص لأنه في الأصل ـ ونظرياً على الأقل ـ مشتق من كلام الله المنزل عندما يسن الأنظمة لسلوك كل دائرة في حياة الإنسان، وهكذا لم يدع مجالاً للتمييز الذي قام في المسيحية بين القانون المقدَّس وقانون الدولة.

وهكذا فلأنَّ القانون من مصدر إلهي فإنَّه كان يتطلب الطاعة حتى من الخليفة وكان يفرض ولو نظرياً ـ على الأقل ـ أن يكون تنظيم الدولة منسجماً مع أحكام الشريعة[1]، وصحيح أنَّ الخليفة كان يستطيع نظرياً ان يجتهد أي أن يكون سلطة تشريعية ولكن قرارات المجتهد التشريعية محدودة بتفسير الشريعة في تطبيقها على المسائل الخاصة التي تقع بين وقت وآخر، وهكذا فهو غير مبدع لتشريع جديد في أيِّ معنى كان، وهذه الفعالية لم يقم بها خليفة من الخلفاء، ومن المحتمل أن يكون ذلك بتيجة عدم مبالاة أكثر الأمويين بالمسائل الدينية التي تركوها للعلماء المعترف بهم، وعندما جاء العباسيون إلى الحكم كان العلماء قد أفلحوا بادعائهم أنهم حماة الشريعة الوحيدون المعتبرون.

(1) لقد قيل عن المنصور إنَّ جلالة الخلافة لم تمنعه من أن يتواضع أمام الشريعة من كتاب **Fragmenta historicorum arabicorum**.

تخطيط تاريخي للدولة العباسية

انتقلت زعامة العالم الإسلامي سنة (750م) بعد انكسار الأمويين في موقعة الزاب إلى العباسيين، فكان كل خليفة يعقبه عضو من هذه الأسرة. والعباسيون كما يدلُّ اسمهم يدعون أنّهم منحدرون من العباس عم النبي، وكان بإمكانهم تعظيم منصبهم بادعائهم القرابة من مؤسس الدِّين. وكان تقلدهم للحكم وقهرهم الأمويين نتيجة لعدد من الظروف أهمها ما يلي: ثار حزب الشيعة الذي كان يؤيد حقوق أسرة علي في الخلافة في أكثر من مناسبة ولم ينقطع قط من تغذية روح السخط سراً على حكم الأمويين وكان الشيعة أصحاب الحق الشرعي في الإسلام. وكانوا يدَّعون أنَّ علياً ابن عم النبي ونسيبه هو الخلف الصحيح وكان على الخلافة أن تنتقل بعد وفاته إلى أبنائه وأبناء زوجته فاطمة بنت النبي بحق التوارث. فاتّحد العباسيون والشيعة في خطتهم لتهديم حكم الأمويين معلنين ولاءهم المشترك لأسرة النبي: عبارة عنى بها الشيعة أبناء علي بينما شملها العباسيون أبناء عم الرسول، وبعد أن أنجز العباسيون فوزهم وحصلوا على كل المساعدة التي كانوا يحتاجونها من الشيعة نبذوهم بدون تردُّد حتى إنَّهم عذبوا أعضاء حزب الشيعة الذين اعتبروهم خطرين على استقرار حكمهم.

نالت قضية الشيعة عطفاً هائلاً في فارس، ولدى الفرس من الأمويين مظلمة أعظم، إذ بينما اعتنق الفرس الإسلام فإنَّ الأمويين أبقوهم ضمن شروط مذلَّة ورفضوا الاعتراف لهم بالتساوي الذي هو حقهم وفق عقائد الدِّين، وهكذا فإنَّ العباسيين جاؤوا إلى الحكم بنتيجة ادعائهم حماة الدِّين وخاصة لتأييدهم لأسرة النبي ضد ممثلي الأرستقراطية العربية الجاهلية القديمة التي اغتصبت العرش، هذا الوفاء للدين الذي أظهروه، بدفاعهم عن حقوق المسلمين وأبنائهم لينالوا مكاناً متساوياً في المجتمع الإسلامي بجانب أولئك العرب الذين قادهم كبرياؤهم الجاهلي إلى التغاضي عن مثل الإسلام بإخاء جميع المؤمنين.

وهكذا فإنَّ تغيير الدولة الأموية بالدولة العباسية إنَّما هو تبديل للمملكة العربية بحكم إسلامي، وكانت القومية العربية هي السائدة في ظلِّ الأمويين وازدهرت أخلاق الثقافة العربية الجاهلية وعاداتها قبل بزوغ الإسلام وظهرت طليقة العنان، فوزع الخليفة الأموي عطاياه بين أفراد الأرستقراطية العربية باستثناء الآخرين، وكانت العاطفة القبلية الضيقة التي أظهرها أعضاء البيت المالك أحد الظروف التي أضعفت سلطانهم ومهدت السبل لثورة العباسيين.

وابتدأ أفول الإمبراطورية في عهد العباسيين سنة (800م) وتاريخ تتويج شارلمان في روما وتأسيس الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة أوج ازدهار الإمبراطورية العباسية رغماً من أنَّ أميراً أموياً هرب إلى إسبانيا وجعل في هذه البلاد مملكة منفصلة سنة (756م). وأصبحت شمال أفريقيا منذ سنة (800) إمارة مستقلة تحت الحاكم الذي أسس دولة الأغالبة والذي جعل منصبه وراثياً في أسرته. واستقلت ولاية إثر الأخرى بسرعة فاقتطعت مصر وسورية من الإمبراطورية وأسست دول مختلفة

في فارس وتكاد سلطة الخليفة العباسي في القرن العاشر لا تتعدى تخوم مدينة بغداد، بينما كان الخليفة نفسه تحت رحمة جيوشه الأجنبية التركية المتمردة الفوضوية، فخلع الخليفة المقتدر مرتين (908 ـ 937م)، وفي نهاية حكمه المخجل الموسوم بسكر شديد وانهماك في الشهوات والتبذير قتل في مناوشة مع جنود أحد قواده فشك رأسه في رمح وترك جسمه ملقى على الأرض حيث سقط.

وسمت الخطة التي تدهورت إليها الخلافة خلال هذا الحكم بالانشقاق الكبير الذي أسس خلافة منافسة في المذهب السُّنّي، فلم يحاول حتى هذا الدور حكّام إسبانيا الأمويين أن يدعوا لأنفسهم بزعامة العالم الإسلامي التي تمتع بها أجدادهم في دمشق أيام الفتوحات العربية العظيمة واكتفوا بلقب أمير وسلطان وابن خليفة، ولكن عبد الرحمن الثالث الذي وصل بإسبانيا المسلمة إلى مركز أسمى ممّا كانت عليه قبلاً قرر أن يتخذ هذا اللقب الذي يبدو أنَّ العباسيين في بغداد لم يعودوا أهلاً لحمله، فأمر حسب ذلك سنة (928م) أن يدعى بخليفة وأمير المؤمنين في صلاة الجماعة وعلى الوثائق الرسمية وكأنّه نظر نظرة شفقة واستخفاف إلى المقتدر الذي كان يُمثّل أسرة العباسيين والذي ما زال يستعمل ألقاباً طنّانة كهذه.

وبعد وفاة المقتدر انتخب أخوه القاهر ليعقبه، ثم خلع بعد حكم إرهابي دام ستتين ففقئت عيناه بإبرتين حاميتين حتى الاحمرار وعذب ليبوح بالمكان الذي خبأ فيه كنوزه وألقي في السجن وترك هناك مدة إحدى عشرة سنة لإصراره على الكتمان، وبعد أن أفرج عنه وجد بحالة فقر مدقع يستجدي الصدقات في أحد الجوامع. بينما وضع حفيده على

العرش ونصب المتآمرون الراضي عوضاً عنه وهو ابن المقتدر المقتول وكان آلة عقيمة في أيدي الوزراء الأقوياء لا يملك من الخلافة سوى الاسم كما وصفه مؤرخ إسلامي. ويُقال: إنّه آخر خليفة ألقى خطبة في صلاة الجمعة، وبعد وفاته سنة 940 أعقبه أخوه المتقي ولكن بعد شهور قليلة اضطرته ثورة الجنود الأتراك أن يهرب من عاصمته ويلتجئ إلى الموصل حيث طلب حماية الأمراء الحمدانيين سيف الدولة وناصر الدولة اللذين كانا يتسابقان في إكرام الشعراء العرب ورجال الأدب في بلاطهم اللامع في الموصل وحلب.

وقد اشتهر هذان الأخوان بأعمالهم العسكرية الجليلة فأعادوا الخليفة إلى عاصمته ولكنّهما اضطرا إلى التخلي عنه ليرعوا الأمور في ممتلكاتهم الخاصة.

واضطرت مؤامرة أخرى الخليفة التعيس أن يهرب من بغداد مرة ثانية ولكنه سلّم نفسه مقهوراً بعد نداءات غير مجدية لمختلف الأمراء المسلمين لإسعافه، للقائد التركي طوزون الذي كان سبب كثير من همومه. ورغماً من أنّ طوزون استقبله أولاً بمظاهر الاحترام إلّا أنّه أعمى الخليفة بالنتيجة بحديدة حامية واضطره إلى التنازل عن الخلافة ثم وضع طوزون المستكفي آخر أُلعوبة. وفي السنة التالية مات طوزون ولكن الخليفة انتقل من أيدي سيد إلى آخر وأجبر آنئذٍ إلى الترحيب بالبويهيين في عاصمته، أولئك الذين هدّدوا بتقدُّمهم الموفّق من جنوب فارس سلطة الجنود التركية التي كانت تخيف سكّان العراق منذ أمد طويل وقد تظاهر الأمير البويهي بالاحترام وتقبّل منه ألقاب الشرف ولكن القوة الحقيقية بقيت في أيدي فاتحي العاصمة الإسلامية الحديثة ثم أعمي المستكفي أيضاً.

وهكذا كان يوجد في الوقت نفسه ثلاثة أمراء عباسيين أحياء كانوا تقلدوا منصب الخلافة السامي وكلهم حرموا بصرهم بقسوة وكلهم سلبوا ثرواتهم، يتّكلون في عماهم على الإحسان وعلى الراتب الضئيل الذي كان يتصدَّق به الحاكم الجديد عليهم. ومنذ ذلك الوقت وسم تاريخ العباسيين بميسم جديد، إذ خلال قرن أضحت الخلافة تابعة تماماً لأسرة مستقلة قوية أخرى كانت ترى في حمايتها للخلفاء العجزة زيادة في أهميتها.

وكان بنو بويه الذين ذكروا آنفاً أولى هذه الأسر وهم أسرة فارسية قاموا في شمال فارس ووسعوا تدريجياً أراضيهم جنوباً حتى دخلت جنودهم بغداد سنة 945، وظلَّت سلطة البويهيين رئيسية في بغداد أكثر من قرن، وكان الخلفاء مجرَّد آلات في أيديهم يوضعون على العرش ويخلعون حسب إرادة آمريهم وكانت وضعيتهم ذليلة، وممَّا زاد في إهانتهم أنَّ البويهيين كانوا شيعة وهكذا فلم يعترفوا بحقِّ السُّنَّة في زعامة العالم الإسلامي العليا وهم الأمراء الأولون الذين أصروا على ذكر أسمائهم في الخطبة بجانب اسم الخليفة: عملية أصبحت فيما بعد عامة عندما لم يعد الخليفة يمارس سلطة فعلية.

واكتفى أحمد أصغر الأخوة البويهيين الثلاثة والفاتح الحقيقي باللقب المتواضع معزّ الدولة بينما دعي علي وحسن أخواه عماد الدولة وركن الدولة، ولكن في هذا المظهر من الخضوع لم يتردَّد معزّ الدولة أن يبدي سلطانه عندما كانت تدعو إلى ذلك تدابير شديدة، وفي أقل من أسبوعين من قسم يمين الولاء للخليفة أنذر بإشاعة مؤامرة موجهة ضد سلطانه فقرر لذلك خلع الخليفة، وعندما ذهب إلى مقر المستكفي الذي كان يستقبل في ذلك اليوم سفيراً في مجلس مهيب قبَّل الأرض أمام

ديرش ثم قبّل يد الخليفة ومكث واقفاً برهة أمامه يتحدث وعندما أخذ مكانه في المجلس تقدّم ضابطان فمدّ الخليفة يده ظنّاً منه أنهما يرغبان في تقبيلهما ولكنّهما سحباه بشكل مخز عن عرشه ولفوا عمامة حول رقبته وسحبوه على الأرض إلى مقر معزّ الدولة حيث سجن وفقئت عيناه.

وأجلس ابن عمه المطيع على كرسي الخلافة في مكانه ولكن رغماً من تقلده المنصب مدة 28 سنة (946 ـ 974) فقد كان مجرَّد صفر في الدولة يعيش من راتب زهيد، وأمكنه أن يتظلم من أنّه لم يترك له إلّا الخطبة هذا الدُّعاء الذي كان يذكر اسمه فيه في صلاة الجمعة[1] ولكنّه حرم أيضاً من هذا الرمز الأخير لمنصبه المبجل، فقد اختلف الطائع خلف المطيع مع عضد الدولة الأمير البويهي ابن أكبر الإخوة المذكورين آنفاً. فأمر هذا الأمير مقابل ذلك أن يسقط اسمه من الخطبة في بغداد وفي مدن أخرى مدة شهرين كاملين، ولكن رغماً من أنَّ مهام الخليفة الحالي آلت إلى العدم وأضحى مجرَّد أُلعوبة في أيدي سيِّده البويهي فقد كانت تلاحظ نفس الأبهة والتظاهر في مناسبات الاحتفالات عندما كان يرى ضرورياً إيهام عقول الناس بجلال منصبه المبجل وحرمته.

وقد وصل سلطان بني بويه إلى أوج عظمته في زمن عضد الدولة الذي فرض مثل هذا الإذلال على الخلافة، فأضحى قبل وفاته سنة (983م) سيِّد كل البلاد من بحر الخزر إلى خليج فارس ومن أصفهان إلى حدود سورية، وبالرغم من أنَّ أباه لم يزل حياً على قيد الحياة فقد ترك لطموحه العنان باستثمار الصعوبات التي وقع فيها ابن عمه في العراق

(1) ابن الأثير: ج8، ص223 (طبعة القاهرة، سنة 1290هـ).

بسبب عصيان جيوشه الأتراك، فاحتل بغداد سنة (975م) وحوّل ابن عمه ثم ألقاه في السجن واحتل بلاده فتدخّل أبو عضد الدولة آنئذٍ وأمرَ على الإفراج عن بختيار وإعادة أملاكه له، ولكن من الطبيعي أن تستمر الثلمة بين أبناء العم فقد أظهر عضد الدولة حقده في كل أسلوب ومناسبة ممكنة.

يروي المؤرخون العرب قصة طويلة على سلبه ابن عمه غلاماً وصيفاً تركياً له جعل بختيار بفقدانه إيّاه في حالة قريبة من الجنون، إذ سجن نفسه ورفض الأكل صارفاً كل وقته في البكاء، مهملاً أهم وظائف الملك الشرقي في ذلك الزمن بمجالسة الناس في البلاط وهاجم عضد الدولة في السنة التالية بعد موت أبيه وابن عمه وكسره وقتله، وهكذا أمسى عضد الدولة سيِّد العراق والسيِّد الأعلى للخليفة العاجز في بغداد.

كان من الضروري أن نقوم بمثل هذه الجولة في سياسة الأسرة البويهية المضطربة لنوضح مركز الخليفة الذي كان لم يزل قائماً في اقتصاديات الدولة الإسلامية رغماً من فقدانه التام للسلطة السياسية. واستخدم عضد الدولة الخليفة الطائع في الاحتفال بنصره ليمدحه. وما دام الخليفة نظرياً زعيم العالم الإسلامي أجمع وينبوع الشرف فالرأي العام لن يتأثر إن ابتكر عضد الدولة لنفسه شرفاً جديداً. فمنح الخليفة رغماً منه بكُلّ تأكيد عضد الدولة ثوب شرف مثل ثوب السلطان وتوَّجه بتاج مرصَّع بالجواهر وخلع عليه شارة أخرى للرتبة الملكية وهو سوار وطوق وسيف، وأهداه رايتين إحداهما محلاَّة بالفضَّة كالتي ترفع أمام الأمير والأخرى مزيَّنة بالذهب كالتي ترفع أمام وليّ العهد.

وغاية عضد الدولة في جعله الخليفة ينعم عليه مثل هذا الشرف غير

الاعتيادي غامضة تماماً، إذ لم تعط مثل هذه الرايات لأيّ شخص من قبل لا يمتُ بصلة للأسرة المالكة. ويمكننا أن نشير إلى أنّ عضد الدولة كان ينوي اغتصاب الخلافة لنفسه فكتب وثيقة ولاية العهد وقرئت عالياً مروعة رجال القصر، وكانت هذه ثلمة جديدة في مراسيم البلاط لأنّ العادة في كُلّ المناسبات السابقة أن تقدم الوثيقة لولي العهد مغلقة وعلى الخليفة أن يعلن أنّ هذه هي الوثيقة التي منحتك إيّاها، اسعَ أن تعمل وفقها.

ولم يقنع عضد الدولة بكل ذلك بعد فتجاوز في السنة التالية ثانية على امتيازات الخليفة وأجبره على أن يأمر بدقّ الطبول عند باب قصر الأمير ثلاث مرّات يومياً صباحاً ومساءً وليلاً وكان ذلك شرفاً خاصاً بالخليفة وحده، وأكثر من هذا، فقد تنازل الخليفة مرة أخرى فسمح لاسم عضد الدولة أن يدمج في الخطبة وأن يذكر في الجامع يوم الجمعة. وإدماج اسم أمير في الخطبة كان رمز ادعائه الملكية وتدلّ على أدنى درجات الانحطاط التي وصلت إليها الخلافة في بغداد.

وفرض مثل هذا الإذلال على الخليفة يناقض تماماً التبجيل والاحترام اللذين كان يُقابل بهما عندما كان من الكياسة تقديره كرئيس أعلى للمؤمنين، ففي السنة التي تلت سلب الامتيازات الآنفة الذُكر أرسل الخليفة الفاطمي المعزّ بالله في القاهرة سفيراً سنة (980م) فاستقبل استقبالاً رائعاً فرتبت الجيوش برتب متسلسلة وصف الأشراف وموظفو الدولة بالنسبة لمراتبهم في البلاط ولكن الخليفة بقي مختبئاً وراء ستار، وعندما استسمح عضد الدولة بالاقتراب منه رفع الستار واستطاع المتفرجون أن يروا الخليفة جالساً على عرشه السامي محاطاً بمئة من الحرس بمظهر رائع، ممتشقين سيوفهم وقد وضع أمامه أقدس أثر في

الإسلام ألا وهو قرآن الخليفة عثمان وعلى كتفيه تتدلّى بردة الرسول وفي يديه يمسك قضيب النبي ومتمنطق بسيف رسول الله، فقبّل عضد الدولة الأرض أمام هذا المشهد الذي يوحي بالإجلال، فسأل الرسول المصري مذهولاً ما هذا؟ أهو الله القادر على كُلّ شيء! فأجاب عضد الدولة: هذا خليفة الله على الأرض، واستمر في تقدّمه مقبّلاً الأرض سبع مرّات أمام الخليفة ثم أمر الطائع أحد حرّاسه أن يقترب به من العرش واستمر عضد الدولة بإظهار التبجيل أمام هذا الجلال المدهش المستحيل المنال، وكان الخليفة يقول له: اقترب وقبل أن يتقدّم ويُقبّل قدم الخليفة مدّ الطائع يده اليمنى وأمره بالجلوس، والتمس عضد الدولة الغفران ولم يرض بالجلوس إلّا بعد إيعازات متكرّرة في المكان المخصص له بعد أن قبّله باحترام. وبعد هذه الحفلة المتقنة قال الطائع: إنّني أكلّفك بعبء رعيتي الذي عهد به الله إليّ في الشرق والغرب، وإدارة كل ما يخصهم باستثناء شخصي وملكي الخاص فهل تتحمّل عبأهم؟ فأجاب عضد الدولة: ليساعدني ربّي في طاعة مولانا أمير المؤمنين وخدمته. وانتهت هذه المهزلة المهيبة بخلع سبعة أثواب شرف على عضد الدولة الذي قبّل الأرض عند تقديم كل واحد منها وغادر المكان يتبعه كل من بقي في المجلس[1].

هذا أنموذج للتمويه الذي وسم به القسم الأعظم من تاريخ مؤسسة الخلافة منذ ذلك الزمن. ولم يقبل عضد الدولة لأنّه شيعي بحقّ الخليفة ولكنّه تظاهر بالخضوع أمامه وبالاحترام، وكإداري كان عليه أن يعامل شعباً سُنّياً كان يعتبر الخليفة إماماً ورئيساً دينياً، وقد وجد من

---

(1) قطب الدّين Chroniken der Stadt Mekka edition F. wustenfeld vol III pp. 168- 169.

السياسة أن يتراجع أمام تعصّب رعيته الديني، وربما رغب أن يظهر أمام السفير المصري أنّه رغماً من أنّه شيعي فهو يردّ ادعاءات الخليفة في القاهرة بأنّه منحدر من فاطمة. والرجل الذي أظهر في هذا الأسلوب العام تلميحات على احترام استعبادي لجلالة الخليفة فقد استطاع في السنة التالية أن يهين الخليفة عند عودته إلى بغداد فيرسل إليه رسولاً بأمره بالخروج من المدينة ليقابله، ولم يكن الخليفة الطائع العاجز ليستطيع الرفض، رغماً من أنّه لم يسبق لخليفة أن خرج من بغداد ليقابل أياً كان.

واستمر استبداد البويهيين مدة حكم الخليفة التالي القادر (991 ـ 1031م) ومدة قسم من حكم ابنه القائم (1031 ـ 1075م).

كان يظهر على هؤلاء الخلفاء العديمي الأهمية العجز بينما كان آخرون أقوى وأجرأ، فكانوا يراقبون حياة العالم الإسلامي السياسية دون أن يرجعوا أبداً إلى الأمير الذي كان يدَّعي أنّه أمير المؤمنين، ولكنّه بالرغم من ضعف الخليفة العباسي في بغداد لم يكن العالم الإسلامي على استعداد ليختار عضواً آخر من قريش ليحلّ محلّ أمير المؤمنين، ومحاولة أمير مكّة أبي الفتح سنة (1011م) ليعترف به خليفة لا تكاد تستحق الذّكر. فقد أعدم الخليفة الفاطمي في القاهرة ـ الحاكم ـ أحد وزرائه ففرّ ابن المقتول إلى قبيلة الطائي البدوية في سورية آملاً في أخذ ثأر أبيه، ودعا أبا الفتوح أن يعلن نفسه خليفة فأعجب أمير مكة بالاقتراح، وبعد أن أقنع سكّان الحجاز بأن يقدموا له يمين الولاء لحق ببني الطائي وأخذ بعض الآثار المقدَّسة كعصا النبي وسيف علي، ورغماً من أنَّ هذه القبيلة استقبلته بترحاب شديد في البدء إلّا أنّه أدرك أنَّ رشوات الحاكم

أنفذ فيهم من الآثار المقدّسة التي يملكها، وهكذا فقد تخلّى عن مشروعه
في السنة التالية وعجل في العودة إلى مكة حيث كان يهدّد مركزه طموح
أحد أقاربه[1].

(1) C. Snouck Hurgronje Mekka vol. I. p. 59.

عرض الفقهاء

دوّن خلال هذا الدور من انحطاط الخلافة أقدم بحث منظم عن نظرية هذه المؤسسة التي أصبحت في متناول يد الباحث التاريخي، فقد رأى الماوردي - الذي ولد في حكم الطائع وتوفي في السادسة والثمانين من عمره سنة 1058م في حكم القائم - الخلافة في حضيض انحطاطها لكنّ ناقض طابع بيانه النظري وقائع التاريخ الراهن، وكان من أشهر فقهاء زمنه وتقلد منصب القضاء في عدة مدن وأخيراً في بغداد نفسها، وقد فسّر القرآن بجانب عدد من المؤلفات في النظرية السياسية، وأكّد متغاضياً عن وقائع التاريخ خلال الأربعة قرون السابقة من التقويم الهجري أنّ منصب الخليفة أو الإمام هو انتخابي ووضع مؤهلات الناخبين: فيجب أن يكونوا من ذوي السمعة الحسنة والحياة المستقيمة ذكوراً بالغين، ويجب أن يعرفوا الصفات المطلوبة في الإمام وأن يكون لديهم وعي وحكم كافيين ليحكموا باختيارهم.

وسعى بأسلوب عبقري ليلائم نظرية الانتخاب مع ما عرفه من أنّ كل خليفة تقريباً كان يعيّن خلفه، فأوضح أنّ العلماء لم يتفقوا على عدد الناخبين اللازم لمشروعية الانتخاب لأنّ بعضهم تمسّك بأن يكون اتفاق إجماعي من كُلّ المسلمين ذوي الأهلية في كُلّ قسم من العالم

الإسلامي، ولم يكن بالإمكان العمل بانتخاب كهذا في ظروف الحين في ذلك العصر فيذكر انتخاب أبي بكر كمثال، فإنَّ أولئك الحاضرين لدى وفاة زعيم الجماعة السابق كانوا كافين لتمثيل جموع المسلمين بكاملهم، والمشكلة الباقية هي عدد الأشخاص الذين يمكن في حالة كهذه السماح لهم بتمثيل رأي الجماعة بكاملها، فيذكر الماوردي أنّه كان خمسة في انتخاب أبي بكر، وعيَّن عمر قبل وفاته مجلساً انتخابياً مؤلفاً من ستّة، ولكن علماء آخرين ارتأوا بأنَّ ثلاثة أشخاص كافين لمماثلته مع عقد الزواج الذي يمكن أن يقوم به شخص واحد أمام شاهدين، ويعتبر مع ذلك آخرون أنَّ الانتخاب يمكن إعلانه بصوت منفرد، وهكذا توصَّل الماوردي إلى أن النتيجة هي أنَّ الخليفة يمكن له تعيين خلفه على أن يتمكن من المحافظة على طابع المؤسسة الانتخابي[1].

ولكن قبل أن يحق لأحد أن ينتخب لهذا المنصب السامي يجب أن يحوز الصفات المؤهلة الآتية: يجب أن يكون من قريش ذكراً بالغاً طاهراً سليماً من كُلّ عاهة جسمية أو عقلية، وأن يحصل على علم كافٍ لتقرير القضايا الصعبة في الشريعة وعلى حزم ضروري للإدارة العامة، وأن يظهر الشجاعة والنشاط في الدفاع عن الأراضي الإسلامية، وهكذا فعلى الخليفة أن يكون قادراً على القيام بالوظائف الإدارية والقضائية والعسكرية.

ثم يفصل الماوردي هذه الوظائف كما يلي: حفظ الدِّين، تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، حماية البيضة والذبّ عن الحريم، إقامة الحدّ، تحصين الثغور، جهاد من عاند الإسلام، جباية الفيء والصدقات،

---

(1) الماوردي، الأحكام السلطانية: ص5 ـ 7.

تقدير العطايا، استكفاء الأُمناء، تقليد النصحاء، أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال لينهض بسياسة الأُمَّة وحراسة الملَّة[1]. ثم جمع الماوردي كل هذه الفعاليات في حماية الدِّين وإدارة الدولة.

والماوردي كما شرحنا آنفاً يتجاهل عملياً المركز التابع الذي انحدرت إليه الخلافة وقيام الدول الإسلامية المستقلة التي كانت تتغاضى عن سلطته، ولكن معاصره البيروني الذي كتب في عهد القائم (1031 ـ 1075م) بملاحظة علمية صحيحة وسمت نبوغه، اعترف صراحة بحقيقة الوضع وأوضح أنَّ ما ترك في أيدي الخليفة العباسي كان ما يتعلق بالدِّين والعقيدة فقط إذ لم يكن قادراً على ممارسة أي سلطة في القضايا الدنيوية مهما كانت[2].

وأورد نظام العروضي في زمن متأخر ـ أي في القرن الثاني عشر الميلادي ـ نظرية الماوردي نفسها وأوجد مكاناً فيها للملوك المستقلين العديدين الذين قاموا في الممتلكات التي كانت تُشكِّل جزءاً من الخلافة. وبعد أن شرح طبيعة المنصب النبوي استمر في قوله: إنَّه بعد وفاة النبي اقتضى الاحتفاظ بالشرع والسُّنَّة، ووجود نائب يكون أفضل الجماعة وأكمل ما أنتج ذلك العصر لكي يستطيع المحافظة على الشرع وتنفيذ السُّنَّة ويسمى هذا إماماً، ولكن الإمام لا يستطيع الوصول إلى آفاق الشرق والغرب والشمال والجنوب بحالة تصل إلى البعيد والقريب ويصل أمره ونهيه إلى العاقل والجاهل، لذلك فهو يحتاج إلى نوَّاب على أن لا يكون لأحد من هؤلاء قوة تجبر الناس على الاعتراف بها، لذلك وجب وجود

(1) الماوردي، الأحكام السلطانية: ص23.

(2) Chronologie Orientalischer Volkeer, p. 132.

مدبِّر ورادع، والرادع يُسمَّى حاكماً أو ملكاً، فالملك إذن نائب الإمام، والإمام نائب النبي، والنبي نائب الله وهو القدير المجيد[1].

وفي دراسة العرض النظري لعقيدة الخلافة يجب أن نذكر ابن خلدون أحد المفكّرين العظام الذين أنتجهم العالم الإسلامي: ومن الملائم أن نُبيِّن عقيدته هنا رغماً من أنّها تخص دوراً جاء بعد الدور الذي توصلنا إليه في مخططنا التاريخي السابق. ولد في تونس سنة 1332م وساهم مساهمة فعلية في الحياة السياسية في عصره من خدمة أمير إلى آخر حتى استقر سنة 1382م في مصر، حيث جعل قاضي القضاة للمدرسة المالكية في التشريع، ومات في القاهرة سنة 1406م. وقد وضع مخططاً واسعاً للتاريخ الإسلامي بمعرفة شاملة وحكم مشحوذ بالتجربة الواسعة والمتنوعة في العمل، وأنتج نظرية جذّابة لأجل المجتمع الإنساني والتربية وتطورها ولم يلتحق بأيِّ نظام فلسفي ولكنَّه اعتمد على الإلهام في هداه الأخير بقضية الاعتقاد، قال: إنَّ أقوى أسس الدولة هو الدِّين ما دام الإنسان وضع في العالم ليقوم بالوجائب التي أملاها عليه الدِّين لتهيئة حياته الآخرة، ولكي يتوصل إلى معرفة الشرع الإلهي الذي يُؤمِّن له السعادة في العالم الآخر يجب أن يهديه نبي أو من يحلّ محله وهو الخليفة، ومع أنَّ الملكية العادية هي مؤسسة إنسانية والقوانين التي يضعها الملك تؤسس على العقل وغايتها ترفيه الإنسان على الأرض، فالخلافة تهدي الناس وفق أحكام الشريعة التي تستهدف دائماً المصير النهائي في عالم الغد، وكذلك فإنَّ ابن خلدون يبني ضرورة الإمام أو الخليفة على الشريعة المنزّلة من قبل

(1) شهر المقالة: طبعة ميرزا محمد، ص10، منقحة لإدوار براون.

الإله يزيد عليها الاتفاق مع العقيدة التي قبلها المشرعون الستة بصورة عامة ورفاق الإيمان وأتباعهم.

ويرد رأي أولئك الفلاسفة الذين يقدمون أسساً عقلية لضرورة الإمام ويلح على أنّه يجب أن يكون للناس رئيس لأنّ الحياة المدنية ممكنة فقط في مجتمع منظم، والخليفة بعكس ذلك يوجد بمشيئة الله وينيبه الله عنه لكي يهدي الناس إلى الخير ويردعهم عن الشرّ. وهو يهاجم بالوقت نفسه عقيدة الشيعة بأنّ الإمامة هي أحد أركان الإيمان ويأخذ نظرية نفعية تقريباً في هذه المؤسسة لأنّها موجودة للصالح العام وقد أودعت لوكالة إنسانية، ويدافع إلى حدٌ ما عن مبدأ أنّ الخلافة تخص قريش ليس فقط لأسباب دينية بأنّ هذا المنصب يتمتع ببركة الله وأنّ النبي نفسه يخص هذه القبيلة وأنّ الله اعترف بأنّ القبيلة تضمُّ أشخاصاً قديرين على القيام بأعباء الخلافة، ولكن على أسس بعض الاعتبارات التاريخية الصرفة، لأنّ قريشاً مثلاً أقوى القبائل وأكثرها احتراماً، فهي تستطيع أن تتزعم الباقين، وإذا رفع عضو من هذه القبيلة إلى مركز الإمام المبجل فإنّه يحصل على تأييد جماعة أشدَّاء من أناس يتصلون به بأوصال القرابة، وهكذا يستطيع رغم ميول العرب الانفصالية أن يكون مركزاً لحياة سياسية متحدة وتطور تاريخي، وبخلاف الماوردي فقد اعترف أنّ الخلافة كمؤسسة تغيَّرت كثيراً خلال سير الدول المختلف التي عاضدتها.

يقول في الابتداء إنّ الخلافة كانت مجرَّد مؤسسة دينية لإرشاد المؤمنين في اتباع الشريعة، ولكن في زمن الأمويين وسمت بميسم الملكية الزمنية ومزج طابعها الديني الأصلي مزجاً معقداً مع حكم الملك

المطلق الذي يجبر على الطاعة بالسيف، وعندما هوت قوة العباسيين بعد وفاة هارون الرشيد تماماً اختفت تدريجياً مظاهر الخلافة الأساسية ولم يبق منها شيء سوى الاسم وخرجت آنئذٍ تلك القوة من أيدي العرب كلهم، ويمكن القول: إنَّ الخلافة لم تعد توجد بينما استمر الملوك الأعاجم يعلنون الطاعة للخليفة وذلك نتيجة لشعور ديني محترم[1].

(1) ابن خلدون، المقدمة: ص386 ـ 388 و394 ـ 399 و423 ـ 424.

الخلافة العباسية منذ القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر الميلادي

لم يزل الخليفة خلال دور تقهقر الخلافة حتى مقتل المستعصم (1258م) أمير المؤمنين لكُلّ جماعة السُنّة، وكخلف للرسول لم يزل يعتبر مصدر السلطة وينبوع الشرف، والخليفة باسمه يعود بالناس إلى مؤسس الدِّين وناشر نظم الشريعة ويمثل لهم مبدأ التشريع والسلطة الثابتين، ومهما يكن سير الحوادث الخارجية فإيمان العلماء والفقهاء السُنّيِّين بعقائدهم التي شرحوها في مؤلفاتهم بقي راسخاً وإذا لم يكن بإمكان الخليفة أن يصدر أمراً خارج قصره فقد استمروا في تلقينهم المؤمن أنّه الرئيس الأعلى لمجموع المسلمين، لذلك فإنَّ كتاب تقليد الولاية وصلة من الخليفة أو لقب شرف يمنحه كان يرضي مطاليب الشرع ويهدئ ضمائر رعايا الأمير المستقل الحية بينما يبقى هذا الحاكم مستقلاً في ولايته تماماً لا يجبر على طاعة الخليفة الألعوبة.

وهناك ما يقابل هذا الوهم السياسي الغريب في تاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة خلال القرن الخامس عشر، بينما كان الإمبراطور البائس فريدريك الثالث متشرداً من دير إلى آخر بعد أن طرد من فيينا يستجدي الصدقات ويجمع ما استطاع من الرواتب التي دفعها لأولئك

الذين كان يمنحهم الألقاب، كتب فقيه اسمه آينيس بيكولوميني (Aeneas picolomini) الذي اشتهر فيما بعد باسم البابا بيوس الثاني إنَّ قوة الإمبراطور خالدة بعيدة من أن تنقص أو تهان، وكل من ينكر على الإمبراطور سيادته على الأرض جميعها يعتبر كافراً، إذ إنَّ سلطته فرضها الكتاب المقدَّس وأمرت بها الكنيسة[1] وهكذا فلم يزل الخليفة نظرياً رئيس الدولة الإسلامية وكيفما قدر لأمير آخر أن يتقلد السلطة فإنَّه كان يجد من السياسة أن يعترف للخليفة بأنَّه المصدر النظري لجميع السلطات.

واستمر الفقهاء المسلمون في ادعائهم للتطرف لصالح الخليفة حتى في أول أيامه، وبنو بويه أنفسهم رغماً من أنَّ احتلالهم لبغداد كان أوج توسع ممتلكاتهم، ورغماً من أنَّ الخليفة كان أسيراً في معيتهم فإنَّهم كانوا يجدون من السياسة تمويه استقلالهم التام بمظاهر من الخضوع وإعطاء حكمهم مظهراً من الشرعية بقبولهم الألقاب منه. وقد اقتدى بهم عدد كبير من الأمـراء، فعندما شق محمود حاكم غزنة في ختام القرن العشرين عصا الطاعة على الأمير الساماني الذي خدم عنده والده كرقيق تركي اتّجه نحو الخليفة العباسي القادر بالله لكي يتلقَّى منه تبريراً لعصيانه، فخلع عليه هذا الخليفة اللقب الطنَّان «يمين الدولة أمين الملَّة أخو أمير المؤمنين»[2]، وكان محمود هذا من أقوى الأمراء في أيامه في الشرق ولم يكن بحاجة إلى مؤيد آخر لسلطة غير جيوشه الخاصة، والولاء الذي أقرَّ به للخليفة كان مجرَّد اعتراف بسلطة الشرع الإسلامي المهاب.

---

(1) Bryce Holy Roman Empire Ed, 1918 pp. 229, 272, 273.

(2) H. M. Elliot History of India Vol II, p. 24.

واستمر بنو بويه منذ سنة 945 ـ 1055م في تنصيب خليفة وخلعهم له عندما يروق لهم ذلك، على أنَّ قيام السلجوقيين كقوة جديدة في فارس قوّض نفوذ بني بويه فانتقلت حراسة الخليفة إلى أيديهم. ابتدأ بالفتوح هذا العرق التركي الحديث الشديد الذي يظهر لأول مرة في تاريخ الإسلام في ابتداء القرن الحادي عشر الميلادي، وأسس إمبراطورية مترامية الأطراف في أيام عظمته من بلاد النهر وهند وكوش إلى الساحل السوري على البحر المتوسط في الغرب، ومن شمال فارس إلى حدود الصحراء العربية في الجنوب، فانحطت قوة بني بويه بنهوض هذه القوة الجديدة حتى طردهم السلجوقيون تماماً، وعندما دخل الأمير السلجوقي طغرل بغداد سنة (1055م) استقبل كأنَّه المنقذ ومنحه الخليفة لقب سلطان المشرق والمغرب[1].

وانتقلت الخلافة إلى وصاية جديدة ولكنَّها غير قسرية هذه المرة، إذ بدلاً من أن يكون السلجوقيون من الشيعة كما كان بنو بويه فقد كانوا سُنّيين ولذلك لم يحترموا الخليفة لمجرَّد اعتبارات سياسية وإنَّما لأنَّه خليفة الله مع أنَّهم اتخذوا لأنفسهم اسم ظلِّ الله الذي كان في الأيام الغابرة من امتيازات الخليفة فقط[2] وقد سلبوا الخليفة المسترشد (1118 ـ 1135م) الأثر المقدَّس بردة الرسول التي كان يلبسها الخلفاء في مناسبة مبايعتهم وفي احتفالات أخرى[3]. ومهما يكن فقد تحسن مركز الخلافة العباسية في حمى السلجوقيين، وعندما اختلفوا فيما

(1) انظر الملحق (د).

(2) Barhtold I p. 221.

(3) Houtsma, Recueil de texts relatifs a l'histoire des seijoucides II PP. 241 - 242.

بينهم وتطاحنوا بحروب عائلية استطاع الخليفة أن يسترجع شيئاً من سلطته المضاعة حتى إنَّ المسترشد جمع جيشاً ونزل للمعركة وتجرا في السير ضد سيِّده السلجوقي مسعود بن محمد ملكشاه حاكم العراق وكردستان وشقَّ طريقه إلى كرمان شاه، وقبل المعركة التي سحق فيها ألقى خطبة في صلاة الجمعة يسجلها المؤرخ ببلاغة تفوق أوج الشمس وتبلغ عنان السَّماء، فيقول: إنَّها أجرأ موقف استطاع أن يقفه خليفة تجاه أسرة استعبدت الخلافة مدة (80) سنة إذ قال: لقد عهدنا بأمورنا إلى آل سلجوق فثاروا ضدنا.

وانتهت هذه المحاولة للاستقلال بكارثة وبموت الخليفة. وعندما انحطت سلطة السلجوقيين كرر الخلفاء المحاولة واكتفى الخليفة الناصر أخيراً بأن يرى رأس معز الدين طغرل ابن إرسلان آخر حاكم سلجوقي في فارس معروضاً أمام قصره في بغداد سنة (1194م).

ولكن لم تدم هذه الأيام القصيرة من الحياة المستقلة طويلاً بل تبعتها حالاً كارثة الغزو المغولي عندما سبى جيش هولاكو بغداد سنة (1258م) وقتل الخليفة المستعصم. ومن السهل إدراك الرهبة التي كانت تحيط بمؤسسة الخلافة حتى في أيام ضعفها هذه ـ كان يعتقد في القرن الثامن الميلادي أنَّ الخلفاء معصومون عن أن يصابوا بالطاعون[1] ـ بأنَّ هولاكو رغم قسوته وتعطشه الوحشي لسفك الدماء تردَّد في قتل خليفة رسول الله لأنَّ المسلمين الذين كانوا يرافقونه في حملته على بغداد أنذروه بأنَّه إذا سفك دم الخليفة على الأرض فإنَّ الظلام سيعمُّ العالم وسيبتلع زلزال أرضي جيوش المغول.

---

(1) Fragmenta Historicorum Arabicorum p. 101.

من الصعب تقدير الارتباك الذي أحس به المسلمون عندما لم يعد هنالك خليفة تستنزل عليه بركات الله ولم يسبق في تاريخ الإسلام حادث مثله. ودعاؤهم في جامع بغداد ويوم الجمعة الذي تلا مقتل الخليفة يعبّر عن الهمّ العظيم إذ يقولون: الحمد لله الذي أهلك أعاظم الرجال وأنقذ من بقي من هذه المدينة، اللّهمَّ ساعدنا في بؤسنا الذي لم يشهد الإسلام وأبناؤه مثله قطُّ إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون[1].

وعندما استذكرت النُّفوس التقية في السنين المتأخرة هذه الفاجعة في بغداد، أدركت الأهوال التي أنذرت مشيرة على قرب هذه الكارثة الهائلة. فقد مزَّقت ريح شديدة عاتية ستار الكعبة وبقيت عارية مدة (21) يوماً وزعزع زلزال أرضي منبر النبي في جامع المدينة واندلعت النار على تل في عدن وأهوال مخيفة أخرى كاندلاع نيران وطوفان وطاعون دلَّت على اقتراب هذه الكارثة الرهيبة التي أفقدت العالم الإسلامي الخليفة مدة ثلاث سنوات ونصف[2].

على أنَّه كان يعترف أمراء مسلمون مختلفون برئاسة الخليفة الاسمية للعالم الإسلامي، أكان لأسباب سياسية أو لشعور ديني ما دام هناك خليفة في بغداد، وهكذا اعترف به كما قدمنا الملك القوي في الشرق محمود حاكم غزنة في ختام القرن العاشر، وكما جاء بعد قرن من المغرب الأقصى حوالي سنة (1086م) من يوسف بن تاشفين الذي قدّر له أن يؤسس دولة المرابطين في إسبانيا والذي أرسل إلى الخليفة المقتضي يريد موافقته على حيازة ممتلكاته، فأجاب الخليفة مرسلاً له

(1) C. d'ohsson **Histoire des Mongols** t, III, pp. 251, 254.

(2) السيوطي، حسن المحاضرة: ج2، ص53 ـ 57.

خلعة الشرف وأعلاماً، وخالعاً عليه اللقب الجديد أمير المسلمين الذي يشبه مبدئياً لقب أمير المؤمنين نفسه. وربما وافق الخليفة فقط على استعمال هذا اللقب الذي سبق أن اتّخذه لنفسه يوسف بن تاشفين، ولو أراد الخليفة أن يحتج لما استطاع فقد كان في مركز ضعيف لا يقوى على تنفيذ احتجاج من هذا النوع.

ومن المحتمل أنّه سرّ فقط أن يتلقّى هذا الاعتراف بسيادته النظرية على العالَم الإسلامي، اعتراف كان مناقضاً تمام التناقض لوضعيته التابعة في ظلّ السلجوقيين، وأكثر من ذلك فخضوع كهذا له أعظم الأثر لمجيئه من إسبانيا التي أقامت لنفسها منذ قرن ونصف خلافة مستقلة، وعندما لم يتحل لنفسه يوسف بن تاشفين أياً من الألقاب المتصلة بالخليفة. ومن المحتمل أيضاً أنه ابتكر إشارة لشرفه الخاص أمير المسلمين الذي وضعه فوق جميع الأمراء السُّنَّة للشبه الواضح باسم كل خليفة منذ أيام عمر العظيمة.

ابتدأت حركة المرابطين كدعاية للسُّنة بين البربر في شمالي أفريقيا فنبّهت العرق الشديد للفتوح؛ وتأسيس مدينة مراكش ذكرى دائمة له، ولكن قوتهم انحطت بأقل من نصف قرن وفشلوا في إنجاز وعود انتصاراتهم اللامعة عندما اجتازوا إسبانيا وكسروا القوى المسيحية في معركة الزلاقة سنة (1086م)، وبعد بضع سنوات ضموا مقاطعات إسبانيا المسلمة إلى إمبراطوريتهم ثم طردت دولتهم سنة (1646م) حركة الموحدين الجديدة التي قامت بين البربر، وكما سنرى فيما بعد فإنَّهم ادعوا بحيازتهم للإمامة.

على أنَّ اعتراف الخليفة العباسي بالمرابطين زاد في هيبته ولكن

هناك ما عوض اختفاء المرابطين بوصول الأخبار سنة (1171م) إلى بغداد بانتهاء الخلافة الفاطمية المنافسة في القاهرة، فمنذ أكثر من قرنين ونصف كان الخليفة الشيعي يفاخر العباسيين وينافسهم في زعامة الإسلام ويتمتع بثروة وقوة عظيمتين لسيطرته على مصر وسورية بينما كان يتألم العباسيون من انحطاط بائس. فقد ظهر بطل جديد للإسلام، فأحيت خطط صلاح الدِّين الموفقة آمالاً جديدة في العالم الإسلامي وأعلن احتلاله لمصر حالما أحس بمركزه آمناً في تلك البلاد بعزله الخليفة الشيعي المفروض أنَّه كان وزيراً له وصلى المسلمون ثانية للخليفة العباسي في مساجد القاهرة ومدن مصر الأخرى وأُضيئت مدينة بغداد احتفاءً بهذا الحادث العظيم وأرسلت الأعلام وخلع الشرف إلى صلاح الدِّين بطل السُّنَّة.

وبعد سنين قليلة أي في سنة (1174م) أخذ نور الدين زنكي يجمع جيشاً ضخماً في محاولة لخلع صلاح الدِّين ولي العهد الشاب غير أن تلك الحملة لم يُكتب لها أن تتم إذ أصيب نور الدين بذبحة صدرية توفي على أثرها في مايو/ أيار من تلك السنة وتقلد صلاح الدين اللقب الملكي. وفي سنة (1175م) كتب إلى الخليفة المستقضي يعلن عن انتصاره على الفرنجة وعن فتوحاته في اليمن وشمالي أفريقيا، ويذكر للخليفة كيف أعاد الخطبة في مصر باسم العباسيين ويطلب كتاب تقليد الولاية على مصر والمغرب واليمن وسورية فأهدى الخليفة ما ليس له أن يعطيه ولكنَّه لم يكن يرفض ما يطريه وأرسل الوثيقة المطلوبة مع خلعة شرف.

وأرسل هذه المرة من الجنوب سنة (1234م) مؤسس دولة أخرى في اليمن نور الدِّين عمر الرسولي (1229 ـ 1249م) هدايا عظيمة للخليفة المستنصر يطلب منه لقب سلطان وكتاب تقليد الولاية كنائب عنه، وقد سرّ الخليفة طبعاً أن يتلقَّى مثل هذا الاعتراف لمنصبه. وممَّا يدلُّ على

فقدان السلطة الفعلية من يديه أنَّ الرُّسل الذين نقلوا الوثيقة لم يقدروا أن يشقوا طريقهم في البر إلى اليمن فانضموا إلى قافلة الحجاج التي انطلقت من العراق إلى مكة ولكن البدو قطعوا الطريق عليهم فاضطر الحجاج إلى العودة إلى بغداد، ولم يستطع إرسال الوثيقة إلّا في السنة التالية بحراً، عند ذلك صعد الرسول المنبر وأعلن رسالة سيِّده مانحاً نور الدِّين عموم إدارة اليمن وألبسه ثوب الشرف[1].

وأهم من ذلك الوقار الذي وصل لأول مرة من الهند، فقد أدَّت الفتوحات هناك إلى خضوع شمال الهند تقريباً وأسست دولة عرفت بملوك العبيد لأنَّ الملوك الأولين لهذه الدولة كانوا أرقاء أتراك امتازوا بجرأتهم العسكرية فعينوا قادةً للجيوش ومن ثم حكّاماً للمقاطعات، وأخرج أحد هؤلاء المُسمَّى (إيل توتمش) سنة (1211م) ابن سلفه ونقل أعظم قسم من الهند إلى سيطرته. وأحس إيل توتمش أنه بحاجة إلى مؤيد شرعي لاغتصابه ولكن مرت عدة سنين على توليه عرش دلهي قبل أن يلتمس الولاية ولم يُرسل كتاب التقليد من قبل المستنصر إلّا سنة (1229م) موافقاً على امتلاك إيل توتمش كل البلاد والبحار التي فتحها وخلع عليه لقب السلطان العظيم. قرئت الوثيقة بمهابة في اجتماع عظيم عقد في دلهي ومن ذاك التاريخ وضع إيل توتمش اسم الخليفة على نقوده.

تبعه خلائفه في هذا المثال الديني، ويظهر لأول مرة اسم آخر خليفة عباسي في بغداد (1242 ـ 1258م) على نقود علاء الدِّين مسعود شاه (1241 ـ 1246م) ورغم أنه من قتل المغول للمستعصم سنة (1258) لم

---

(1) الخزرجي، خيوط اللؤلؤ: ص55.

يزل اسمه يظهر على نقود الملوك المتتابعين في دلهي كمحمود شاه ناصر الدِّين (1246 ـ 1265م) وغياث الدِّين بالبان (1265 ـ 1287م) ومعزّ الدِّين كيقباد (1287 ـ 1290م) آخر ملك لدولة العبيد. واستمر هؤلاء في ذكر اسم المستعصم في الخطبة[1].

وقامت دولة جديدة هي دولة الخالجي وأحس بالحاجة نفسها للتبرير واستمرت نقود جلال الدِّين فيروز شاه الثاني (1290 ـ 1295م) في حمل اسم المستعصم رغماً من أنَّ هذا الخليفة قتله المغول قبل أكثر من ثلاثين سنة[2].

ماذا كان يعمل أمير مسلم تعيس كان يشعر بأنَّ لقبه متضعضع؟ كان يدرك أنَّ سيفه فقط وضعه على العرش وأنَّ دولته قد تبدَّل في أيِّ زمن كما أزاح هو نفسه الدولة التي سبقته، وبينما أخبره مستشاروه في التشريع ومرشدوه الدينيون أنَّ مصدر السلطة الشرعي الوحيد كان الخليفة أو الإمام وأدرك أنَّ كُلّ رعاياه المسلمين الصالحين يساندونهم رأيهم، لذلك استمر بوضع اسم المستعصم المتوفى على نقوده لأنَّه لم يستطع إيجاد آخر، ولم تفلح النظرية الإسلامية في الدولة في أن تتلاءم مع الواقع إذ لم يكن في الوجود آنئذٍ خليفة أو إمام، ثم تخلص خلفه علاء الدِّين محمد شاه (1295 ـ 1315م) من هذه الصعوبة بانقطاعه عن اسم المستعصم وبكتابة اسمه فقط كيمين الخليفة ناصر الدِّين[3] وكان هذا يكفي لإرضاء الضمائر الحيَّة بينما لم يساعد في الواقع أي خليفة كما عمل أسلافه

---

(1) طبقات الناصري: ص1259.

(2) H. N. Wright Catalogue of the Coins in the Indian Museum Calcutta vol II p. 36.

(3) H. N. Wright. Op. cit. p. 39.

الذين رأوا المستعصم البائس يوطأ بالأقدام ليموت دون أن يحركوا يداً بينما استمروا في استعمال اسمه لغاياتهم السياسية الأنانية المحضة.

كان الموقف حرجاً دون شكّ في أنّه لم يسبق مثله، وقد وجد العالم الإسلامي بالتجربة أنَّ عليه السير بدون خليفة، وأثرت هذه الظروف بدون شك على عقول الرجال المفكرين، ومن المحتمل أنه منذ هذا الدور اشتدت الفكرة بأنَّ مؤسسة الخلافة انتهت حقاً منذ دور الخلفاء الراشدين، هذه العقيدة التي أعلن عنها قليلاً والتي كانت تُبعث من وقتٍ لآخر كما سنرى فيما بعد.

تأسيس الخلافة العباسية في القاهرة

لم يقدر السياسيون أن ينسوا الدور الهام الذي لعبه الخليفة في حياة العالم الإسلامي السياسية بالرغم من الشكل المفجع الذي زالت به الخلافة من عالم الوجود لإعطائه مظهراً من الشرعية لأولئك الأمراء الذين كانوا ينصّبون أنفسهم على العروش، أكان بالقتل أو بالاختلاس أو بحنكتهم العسكرية ومن ثم يفتشون عن لقب له.

وقد قامت مثل هذه الصعوبة في مصر في دور انحطاط الدولة الأيوبيَّة التي أسسها صلاح الدِّين، عندما زلق عنان القوة بعد خمسين سنة من وفاة هذا الملك العظيم إلى أيدي خلائفه الضعفاء، فانتقلت إدارة البلاد إلى الأمراء المماليك الأرقاء الأتراك الذين ارتقوا إلى مراكز القيادة في الجيش، هؤلاء المماليك الذين حكموا بلاد مصر الغنية أكثر من قرنين ونصف القرن سعوا أولاً أن يكسبوا حكمهم مظهراً من الشرعية بادعائهم أنَّهم يحكمون البلاد كأوصياء على أمراء القصر مثل عز الدين أيبك (1250 ـ 1257م) عوضاً عن طفل من الأسرة الأيُوبية وحفيد لصلاح الدِّين، وخلف أيبك قطز (1257 ـ 1259م) عوضاً عن ولد صغير لأيبك ولكن هذا التدبير كان غير مرضٍ وكلا هذين الأميرين من المماليك وجدا من الضروري بعد وقت قصير أن يطرح اسم السلطان جانباً وأن

وتخلّص الملك الرابع من المماليك يدّعي السيادة باسمه الخاص. من هذا الموقف الحرج بدعوة عم آخر الخلفاء بيبرس (1260 ـ 1277م) العباسيين، الذي استطاع الهرب من المجزرة في بغداد ليأتي إلى القاهرة فحضر إلى المدينة بأبهة واحتفال في يونيو/ حزيران (1261م) ونصّب هناك خليفة.

وبعد أن تحرى الفقهاء عن نسبه وأعلن قاضي القضاة صحته بايعه وتبعه بيبرس ثم موظفو الدولة ووعدوا بأن يطيعوا أوامره وكلام الله والحديث وأن يحاربوا دفاعاً عن الدِّين. وبعد أيام قليلة منح الخليفة، الذي اتّخذ لنفسه لقب المستنصر الذي عرف به أخوه الخليفة الذي سبق الأخير في بغداد (1126 ـ 1242م)، باحتفال لائق ثوب الشرف مع وثيقة التولية التي سبكت بالعبارات الآتية: الحمد لله الذي أضفى على الإسلام ملابس الشرف، وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف، وشيد ما وَهِيَ من علائه حتى أنسى به ذكر من سلف وقيض لنصره ملوكاً عليهم من اختلف... وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده الذي جبر من الدِّين وهناً، ورسوله الذي أظهر من المكارم فنوناً لا فنّاً صلّى الله عليه وعلى آله الذين أضحت مناقبهم باقية لا تفنى وأصحابه الذين أحسنوا في الدِّين فاستحقوا الزيادة بالحسنى.

وبعد: فإنَّه أولى الأولياء بتقديم ذكره وأحقهم أن يصبح القلم راكعاً وساجداً لتسطير مناقبه وبرّه، من سعى فأضحى سعيد الجد متقدماً، ودعا إلى طاعته فأجاب من كان منجداً ومتهماً، وما بدت يد في المكرمات إلّا كان لها زنداً ومعصماً، ولا استباح بسيفه حمى وغى إلّا أضرم منه ناراً وأجرى منه دماً، ولمّا كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالي

المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني - شرَّفه الله وأعلاه - ذكرها الديوان العزيز النبوي الإمامي المستنصري - أعز الله سلطانه - تنويهاً بشريف قدره واعترافاً بصنعه الذي تنفد العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره، وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمن وأذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان، وعتب دهرها المسيء لها فأعتب وأرضى عنها زمنها وقد كان صال عليها صولة فغضب فأعاده لها سلماً بعد أن كان عليها حرباً وصرف إليها اهتمامه فرجع كل متضايق من أمورها واسعاً رحباً، ومنح أمير المؤمنين عند القدوم إليه حنواً وعطفاً، وأظهر من الولاء رغبة في ثواب الله ما لا يخفى، وأبدى من الاهتمام بأمر الشريعة والبيعة أمراً لو رامه غيره لامتنع عليه، ولو تمسك بحبله متمسك لانقطع به قبل وصوله إليه، ولكن الله ادخر هذه الحسنة ليثقل بها ميزان ثوابه ويخفف بها يوم القيامة حسابه... وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ويعترف أنّه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع، وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً، وفوَّض أمر جندها ورعاياها إليك حتى أصبحت بالمكارم فرداً ولا جعل بها بلداً من البلاد ولا حصناً من الحصون يستثني ولا جهة من الجهات تعدّ في الأعلى ولا في الأدنى فلاحظ أمور الأُمّة فقد أصبحت لها حاملاً وخلص نفسك من التبعات اليوم ففي غدٍ تكون مسؤولاً... ثم يلي ذلك الحضّ على الحكومة الصالحة وإرشادات في تعيين الموظفين ومراقبتهم وإلغاء الضرائب الثقيلة...

ثم يؤكِّد الخليفة حقّه الخاص بأسلوب مؤثر فيقول: فاحمد الله على أن وصل إلى جانبك إمام هدى أوجب لك مزية التعظيم ونبَّه

الخلائق على ما فضَّل الله به من هذا الفضل العظيم، وهذه أمور يجب أن تلاحظ وترعى وأن يوالى عليها حمد الله... وأخيراً يذكر بأمر الجهاد فيقول: وممَّا يجب أيضاً تقديم ذكره أمر الجهاد الذي أضحى على الأئمَّة فرضاً، وهو العمل الذي يرجع به مسود الصحائف مبيضاً، وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم وأعدَّ لهم عنده المقام الكريم وخصَّهم بالجنَّة التي لا لغو فيها ولا تأثيم... وبك صان الله حمى الإسلام من أن يتبذل وبعزمك حفظ على المسلمين نظام هذه الدول، وسيفك أثر في قلوب الكافرين قروحاً لا تندمل، وبك يرجى أن يرجع من الخلافة ما كان عليه في الأيام الأول، فأيقظ لنصرة الإسلام جفناً ما كان غافياً ولا هاجعاً، وكن في مجاهدة أعداء الله إماماً متبوعاً لا تابعاً، وأيّد كلمة التوحيد فما تجد في تأييدها إلَّا مطيعاً متابعاً. ثم تأتي تعليمات مختلفة كحماية الثغور وإصلاح الحصون وفي نهاية الاحتفال يركب السلطان بهذه الأبهة ويشقّ طريقه إلى القاهرة يحيط به رجال الدولة أحدهم يحمل في الأمام (كتاب التقليد أو الولاية)[1].

ومن أهم مظاهر هذه الوثيقة ادعاء الخليفة السلطة على بلاد لم تقدّم للدولة العباسية الطاعة منذ قرون وحقه بالتشريع الأعلى في العالم الإسلامي رغماً من أنَّه لا يملك جنوداً ولا موارد مهما كان نوعها تحت تصرفه وتدخله في تفاصيل الإدارة لجهاز منظم كحكومة مصر في ذاك الزمن، رغماً من أنَّه غريب تمام الغرابة عنه. وربما شعر بيبرس بخطأ عمله هذا بالترحاب بالأمير العباسي ورأى أن يعدّ العدَّة حالاً لتسفير ضيفه الذي كان يريد أن يزوَّد بالجيوش لإعادة بغداد. وانطلقا كلاهما من القاهرة بعد ثلاثة أشهر بقوة عظيمة، وعندما وصلا دمشق أنذر بيبرس

(1) السيوطي، حسن المحاضرة: ج2، ص59.

أحد أصدقائه بأنّ إعادة تأسيس الخلافة في بغداد قد تُشكّل خطراً على استقلاله الخاص، وهكذا فقد تخلّى عن المستنصر التعيس وتركه لمشيئة القدر، وهوجم الخليفة عندما كان يجتاز الصحراء من قبل حاكم بغداد المغولي ولم يُسمع عنه بعد ذلك شيء.

وبعد سنة عاد إلى القاهرة أمير آخر من العباسيين واسمه العباس أحمد الذي هرب من الكارثة التي حلّت بالمستنصر، وبعد إبطاء بسيط نصّب كخليفة بلقب الحاكم، ولكن بيبرس احترس هذه المرة أن ينصّب من ينافسه في سلطانه وبالرغم من معاملته للخليفة بمنتهى مظاهر الاحترام فإنّه في الواقع احتفظ به كسجين في القلعة ولم يسمح له أن يمارس أي نفوذ في حياة بلاده السياسية.

وقد روعيت شكليات الاحتفال نفسها كما كان للمستنصر، فتحرّوا عن نسب هذا اللاجئ وأعلن صحته قاضي القضاة، لكن بيبرس تأخّر سنة تقريباً في ضرب النقود باسم الخليفة المستنصر قبل أن ينظّم الاحتفال الرسمي في نوفمبر/ تشرين الثاني 1262م ليقدّم ولاءه للخليفة الجديد. وفي اليوم التالي وكان يوم جمعة قرأ الخليفة الخطبة التالية: «الحمد لله الذي أقام لآل عباس ركناً وظهيراً وجعل له من لدنه سلطاناً نصيراً، أحمده على السرّاء والضرّاء وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء وأستنصره على الأعداء... وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله وصلّى الله عليه وسلّم وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء وأئمّة الاقتداء لا سيما الأربعة الخلفاء وعلى العباس عمه وكاشف غمه وعلى السادة الخلفاء الراشدين والأئمّة المهديين وعلى بقية أصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدّين.

أيُّها الناس اعلموا أنَّ الإمامة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولا يقوم علم الجهاد إلَّا باجتماع كلمة العباد، ولا سبيت الحرم إلّا بانتهاك المحارم، ولا سفكت الدماء إلّا بارتكاب المآثم، فلو شاهدتم أعداء الإسلام لما دخلوا دار السلام واستباحوا الدماء والأمـوال وقتلوا الرجال والأطفال وهتكوا حرم الخلافة في الحريم وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل وعلت الضجات من هول ذلك اليوم الطويل، فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه، وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه، فشمروا ساق الاجتهاد في إحياء فرض الجهاد ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1] فلم يبق معذرة في القعود عن أعداء الدِّين والمحاماة عن المسلمين. وهذا السلطان الملك الظاهر السيِّد الأجل العالم العادل والمجاهد والمؤيد ركن الدُّنيا والدِّين، قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار وشرّد جيوش الكفر بعد أن جاسوا الديار، فأصبحت البيعة بهمته منتظمة العقود، والدولة العباسية به متكاثرة الجنود، فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة، وأخلصوا نيَّاتكم تنصروا وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا، ولا يروعكم ما جرى فالحرب سجال وللعاقبة للمتقين. والدهر يومان والأجر للمؤمنين جمع الله على التقوى أمركم وأعزّ بالإيمان نصركم، واستغفر العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين فاستغفروه يغفر إنَّه هو الغفور الرحيم»... ثم جلس برهة حسب العادة ونهض ثانياً يقرأ القسم الثاني من الخطبة التي تتألف من دعاء وصلوات[2].

---

(1) سورة التغابن، الآية 16.
(2) السيوطي، حسن المحاضرة: ج2، ص62 ـ 63.

وهكذا كان ابتداء سلسلة الخلفاء الطويلة في القاهرة إذ كان يشغل هذا المنصب حفيد بعد آخر للحاكم مدة قرنين ونصف، وكانوا أضعف وأقل أثراً ممّا كان عليه آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، ولكن وجودهم في القاهرة ألقى على حاكم المماليك في مصر مظهراً من الشرعية، واعتاد الخليفة أن يخرج من عزلته في مناسبة تنصيب سلطان جديد لكي يقلده السلطة ويؤيد حكمه بالشريعة.

ويمكن ملاحظة الأهمية التي كان يعلقها السلطان بيبرس على وجود الخليفة في عاصمته رغم احتفاظه به كسجين حقيقي من اللوحة الموجودة في حمص كذكرى لإنعامه في بناء قبر خالد بن الوليد فاتح سورية إذ يدرج سلسلة من الألقاب ويبيّن بعد ذلك بأنّه هو الذي أصدر الأوامر بطاعة الخليفتين[1].

---

(1) Max van Berchem, **Inschrif ten ans Syrien Mesopola mien und Kleinasien** p.5.

علاقات الخلفاء العباسيين في القاهرة بالأمراء الآخرين في العالم الإسلامي

تقلد ثلاثة عشر خليفة من الأسرة نفسها هذا المنصب الخيالي للخلافة في القاهرة مدة أكثر من قرنين ونصف. فكانوا يخرجون بأبهة عظيمة واحتفاء عظيمين لتنصيب كل سلطان جديد من المماليك رقي للحكم بعد قتل سلفه غالباً (كما سنرى فيما بعد) واستفاد منهم أمراء مسلمون آخرون ليكسبوا حكمهم مظهراً من الشرعية. ولكن وجود مصدر السلطات جميعها للعالم الإسلامي في القاهرة جعل الحكّام المماليك يدعون لأنفسهم بمركز أسمى من أيّ حاكم إسلامي آخر وينكرون لأيّ خصم لهم حق تقليد لقب السلطان لأنّه لهم وحدهم منحه الخليفة وفق أحكام الشريعة[1].

أما وضعية الخلفاء العباسيين في القاهرة فكانت ذليلة جداً ولم يتردَّد المؤرخون المعاصرون لهم أن يتكلموا بحرية عن شأنهم التابع، فلم يتنازل قلاوون أحد سلاطين المماليك الأعاظم (1279 ـ 1290م) قطعاً أن يلتمس من الخليفة تقليده السلطة وحرم سلطان آخر واسمه

(1) خليل بن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك: ص89.

ناصر محمد حوالي منتصف القرن الرابع عشر الميلادي الخليفة الواثق بالله إبراهيم عدة شهور من شرف أجوف هو ذكر اسمه في الخطبة كما يندب المؤرخون المسلمون: لقد زال اسم الخليفة من على المنابر كأنّه لم يرتفع إليها قطٌّ، وخلت المحاريب في الجوامع من الدُّعاء للخلفاء كأنّه لم يتردَّد عند أبوابها[1] وأكثر من ذلك فالمعاش الممنوح لهذا الخليفة كان ضئيلاً لدرجة جعل الجمهور يلقبونه على سبيل السخرية بالشحاذ[2].

ولكن مهما كان الأمر في مصر فلم يكن لأحد من هؤلاء الخلفاء العباسيين (باستثناء واحد سيذكر فيما بعد) امتياز ذكر اسمه في الخطبة في مكة المكرمة المدينة المقدَّسة، ومنذ مقتل آخر خليفة عباسي في بغداد المستعصم (1258م)، لم يدع لأحد من الخلفاء في صلاة الجمعة في الكعبة مركز الوحدة الإسلامية إمَّا لأنَّ السلطات الدينية المختصة اعتقدت بأنَّ العالم الإسلامي كان بدون خليفة أو (لأنَّ هناك عدة مدعين) لشك خاص في حقِّ الخلفاء في القاهرة في ذلك الشرف. والسبب الذي يحتجون به أنَّه لم يضرب أحد من هؤلاء الخلفاء المهملين النقود باسمه الخاص، ولم يصدر أحدهم قرارات بخاتمه الخاص، فهم يقدرون بصراحة النظرية التي تقول: إنَّ منصب الخلافة يشمل السيادة الفعلية[3]. والاستثناء الوحيد هو عندما جعل الخليفة المستعين ألعوبة حزب سياسي مخاصم فانتخب سلطاناً على مصر سنة 1412م على أنَّه بقي

(1) السيوطي، تاريخ الخلفاء: ص179.
(2) Weil. Geschichte des Abbasiden chalifats un Egypten I p. 406.
(3) Al- fas, subanno 815, Chroniken des stadt Mekka vol II. Pp. 294, 295.

أسيراً كما كان قبل وكل سلطة مؤقتة كانت في أيدي الآخرين واضطر إلى الانسحاب بعد ستة أشهر من منصبه ليتركه لمن كان ألعوبته والذي أعلن نفسه آنئذٍ سلطاناً باسم الملك المؤيد[1].

يتحدث مؤرخ آخر واسمه السيوطي الذي كتب في آخر القرن الخامس عشر عن الوضعية التابعة التي كان يشغلها الخليفة في تلك الأيام فيقول: صار الأمر في زماننا أنَّ الخليفة يأتي إلى السلطان ليهنئه برأس الشهر، فأكثر ما يقع من السلطان في حقِّه أن ينزل عن مرتبته ويجلسان معاً خارج المرتبة، ثم يقوم الخليفة يذهب كأحد الناس ويجلس السلطان في دست مملكته[2].

ولم يزل النظريون يقدرون على اعتبار الخليفة في القاهرة حاكماً لجميع البلاد الإسلامية وزعيماً للجماعة الإسلامية: فقد وصف خليل بن شاهين الظاهري (1410 ـ 1468م) الذي ألّف كتاباً عن تنظيم المماليك، أمير المؤمنين كما يلي: هو خليفة الله على الأرض ابن عم الرسول سيِّد المرسلين والذي ورث الخلافة عن (النبي). جعله الله القدير (الخليفة) حاكماً على جميع بلاد الإسلام لا يمكن لأحد من ملوك الشرق والغرب أن يحمل لقب السلطان دون أن يكون بينه وبين الخليفة ميثاق، وقد أقرت بعض السلطات الدينية أنَّ كل من ينصّب نفسه سلطاناً بالعنف بواسطة السيف وبدون اتفاق مع الخليفة يعتبر ثائراً ولا يقدر على تعيين أي موظف أو قاض. وإذا عيّن أحد ما على هذا الصورة فالقرارات وعقود الزواج الذي يصدرها تعتبر لاغية[3].

---

(1) Weit op. cit II, 11 , 126- 128.

(2) تاريخ الخلفاء: للسيوطي، ص164.

(3) خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك : ص89.

ولدينا من القرن الخامس عشر وصف لخليفة يرافق سلطان المماليك برسباي (1422 ـ 1438) في حملة: يسير وراءه ويعمل كأنّه مدير تشريفات (حاجبه) بينما كان كل احترام وهيبة خاصاً بالسلطان وكان يظهر الخليفة كأنّه أحد الأمراء في معية السلطان[1].

يلاحظ المقريزي الذي توفي سنة (1441م)، ملاحظات مهينة في حقّ هذه المؤسسة فيقول: وضع المماليك خليفة رجلاً أعطوه اسمه وألقابه التي تلائمه لكنّه لا يملك من السلطة شيئاً حتى ولا حقّ إبداء رأيه، كما يقضي وقته بين الأمراء والموظفين الكبار والكتّاب والقضاة يزورهم ليشكرهم على ولائهم ومسامراتهم التي كانوا يدعونه إليها[2].

ورغم الشروط المذلّة هذه كان هناك بعض الأمراء المسلمين بعكس المماليك يجدون من الخليفة العباسي في القاهرة نفعاً لهم بإعطائه إيّاهم لقباً عندما يحوزون بلاداً اكتسبوها بالقوة والغدر. فقد نبذ مبارز الدّين محمد بن مظفر مؤسس الدولة المظفرية التي حكمت جنوب فارس مدة 80 سنة (1313 ـ 1393م) الولاء لسيّده الأعلى الخان المغولي وشرع في خطة الفتوح وفي نهايتها (خلع وأعمي سنة 1357م) أقسم يمين الولاء للخليفة المعتضد بالله سنة (1354م) وبعد فتحه لتبريز (1357م) أدمج اسم الخليفة في الخطبة. واعترف ابنه الشاه شجاع (1357 ـ 1384م) كذلك بالخليفة المتوكل سنة 1369م[3].

وهناك ظروف ذات فائدة خاصة لها صلة باعتراف السلاطين

---

(1) السيوطي، تاريخ الخلفاء: ص164.
(2) المقريزي، تاريخ مصر: ص76.
(3) Barthokl op. cit. I, p. 359.

الأتراك في دلهي بالخليفة المهمل في القاهرة. فقد توصَّل إلى العرش محمد بن تغلاق سنة 1325م بقتله أبيه بخيانة غريبة. فقد عمل لإراحة أبيه بناءً خشبياً مؤقتاً ودبَّر خلال استعراض فيلة الدولة أن تصطدم به فتهدمه ويقبر بانهياره السلطان وابنه العزيز عليه، بينما اعتنى أن يتأخر الإسعاف كي لا يجدي نفعاً. كان الملك الجديد من أشهر الوجوه في تاريخ الهند المسلمة فقد خربت حكومته الظالمة البلاد وأدَّت بالناس إلى ثورة ذبحهم فيها بدون رحمة، وكان يظهر شرهاً لسفك الدماء وهوى للقتل الوحشي حتى في الأزمنة العادية. وانهمك في مشاريع من الإدارة والفتوح الهمجية نشرت البؤس، ومن آرائه الحمقاء تبديل العاصمة من دلهي إلى دولة آباد على مسافة أربعين يوماً من الأولى، فأخرج سكَّان تلك العاصمة الفسيحة من بيوتهم وهلك منهم كثير في رحلتهم هذه، وفتش موظفو السلطان تفتيشاً دقيقاً عن الذي تهرب من أوامره في المدينة فوجدوا شخصين أحدهما معتوه والثاني أعمى فجلب هذان الرجلان أمام السلطان الذي أمر أن يلقى المعتوه بالمنجنيق وأن يجر الأعمى من دلهي إلى دولة آباد فتمزق من الطريق جسمه ووصلت منه إلى العاصمة الجديدة إحدى ساقيه.

لكن محمد بن تغلاق كان مسلماً ورعاً منتظماً في تعبده وزهده ممتنعاً عن شرب الخمر موسوساً في رعاية أحكام الدِّين، وكان قد مضى له على العرش 18 سنة عندما ابتدأت الشكوك تساوره في مشروعية حكمه إذ لم يتلق تأييد الخليفة العباسي. وهكذا فقد استقصى الأخبار من كثير من المسافرين واكتشف أنَّه كان يوجد خليفة عباسي يُسمَّى المستكفي في مصر فراسله، وعندما أرسل له كتاب التقليد من القاهرة تلقَّاها السلطان محمد بعلائم الاحترام الزائد وأدمج اسم الخليفة في

الخطبة وضرب النقود باسمه، وأرسل هدايا قيّمة للخليفة بالمقابل[1].
ويمكن الحكم على ضعف العلاقات الشخصية في تبادل الثناء هذا من أنَّ اسم المستكفي الذي مات سنة 1340م استمر في الظهور على نقود محمد بن تغلاق حتى سنة (1342 ـ 1343م) بالدُّعاء الآتي: اللَّهمَّ احفظ الخلافة أبداً[2].

كان خلفه الورع فيروز شاه (1351 ـ 1388م) لطيفاً بقدر ما كان محمد بن تغلاق وحشياً وقام بخضوع مماثل للخليفة في القاهرة، ويستذكر وضعيته هذه في وصف قصير لحياته الخاصة فيقول: إنَّ أعظم وأحسن شرف نلته برحمة الله هو أنَّني أيّدت سلطتي بطاعتي واحترامي وصداقتي وخضوعي للخليفة نائب النبي المقدَّس، لأنَّ سلطان الملوك لا يقوى إلَّا بهذا التأييد ولا يأمن ملك حتى يخضع للخليفة ويتلقَّى منه موافقة من عرشه المقدَّس، لقد أرسلت إليَّ وثيقة تؤكِّد سلطتي نائباً عن الخليفة وقد سرَّ أمير المؤمنين بأن يشرفني بلقب سيِّد السلاطين وقد خلع عليَّ ثياباً وراية وخاتماً وأثر قدمه: سمات للشرف والرفعة[3].

وفي بلاد ما وراء النهر شعر بأنَّ الخليفة في القاهرة قد يفيد الدولة في غايتها فقد عيّن تيمورلنك ابنه الكبير بير محمد وصياً للعهد، ولكن عندما توفي الفاتح سنة (1404م) كان هناك تطاحن لامتلاك إمبراطوريته الواسعة. وجد بير محمد ابن عمه خليل سلطان ينافسه في حقِّه فألحَّ عليه بعض أنصاره أن يلتمس وثيقة الولاية من الخلفاء العباسيين في القاهرة وهكذا تلغى القوانين المغولية (اليسق) وكانت وسيلة

---

(1) ضياء الدِّين باراني، تاريخي فيروز شاهي: ص491، وابن بطوطة: ج1، ص364.
(2) H. N. Wright op. cit. vol. II, p. 52.
(3) فتوحات فيروز شاهي، تاريخ الهند: المجلد الثالث، ص387.

ضعيفة على الأكثر، ولكن كان تعبيراً للاعتقاد بقوة اللجوء إلى الشعور الإسلامي واعترافاً بمُثل العالم الإسلامي الضائعة وسيادة الخليفة وسلطة الشريعة[1]. ولكن يظهر أنَّ الاقتراح لم يقبل فقرر بير محمد أن يعترف بسيادة عمه شاه رخ وقتل بعد سنتين من وفاة جدّه.

ودعت رغبة مماثلة السلطان العثماني بايزيد الأول سنة 1394م أن يلتمس من الخليفة العباسي في القاهرة منحه لقب سلطان[2]. وليس هناك صراحة فيما إذا منح هذا الاعتراف ولكن يشك في أمره[3]. ولكن في كتاب أرسله بايزيد حوالي سنة 1400م إلى تيمورلنك يذكره بالعباسيين ورثة عرش الخلافة الذين التجؤوا إلى مصر[4] كما أنّه يلمح للفاتح العديم الشفقة أنّه لم يزل في الوجود مركز يمكن لجهود إسلامية مشتركة ـ أو على الأقل أنَّ الأتراك والمصريون يستطيعون أن يتحدوا بذكرى إمبراطورية إسلامية واحدة ماضية ليقاوموا التهديم الذي كان يقوم به تيمورلنك بين المسلمين.

(1) عبد الرزاق سمرقندي: مطلع السعدين ومجمع البحرين: (المتحف البريطاني).

(2) J. von. **Hammer Geschichte des osmanischen Reiehes** vol. p. 195.M. d'ohsson, **Tableeu de l' empire ottoman** I pp. 233- 34.

(3) Barthold op. cit. I p. 360.

(4) أحمد فريدون بك، منشآت سلاطين: المجلد الأول، 1 ـ 25.

الأمراء المسلمون المستقلون الذين ادعوا الخلافة

بينما كانت تعتقد بعض المقامات الإسلامية أنّه لم يزل في الوجود خليفة رئيس للعالم الإسلامي كان هناك آخرون يسخرون من ادعاءات الخلفاء العباسيين في القاهرة، ويشكّ آخرون في نسبهم أيضاً، ولم يقبلوا دعواهم بأنّهم أحفاد الخلفاء في بغداد. وبعث بعضهم النظرية التي مرَّ ذكرها آنفاً أنَّ الخلافة لم تدم أكثر من ثلاثين سنة بعد وفاة النبي، وقد عبَّر عن هذه العقيدة في مجموعات الحديث الثابتة ووجودها مؤكّد في زمن مبكر أي في القرن الثالث الهجري. إذ يقول النبي: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك»[1].

وقد تبنّى المقريزي المؤرخ الذي مرَّ ذكره مراراً هذه العقيدة عندما قال: أصبحت الخلافة ملكية مطبوعة بطابع الضعف والاستبداد بعد الخلفاء الأربعة الحقيقيين أي بعد وفاة علي سنة (661م). واعتبر الفقيه ابن خلدون أنْ لم يترك للخلافة بعد حكم هارون الرشيد إلّا الاسم، ومنذ ذاك الوقت أصبحت ملكية مجردة، وأنَّ منصب الخلافة زال من الوجود

---

(1) كنز العمال: ج3، رقم 3152.

بزوال سيطرة العرق العربي[1]. ثم تحدث كاتب متأخر واسمه قطب الدِّين الذي توفي سنة (1582م) فعيَّن انتهاء الخلافة بصورة حاسمة منذ موت آخر خليفة في بغداد على أيدي المغول سنة (1358م)[2]، ويكرر الرأي بأنَّ الخلفاء في القاهرة كانوا خلفاء بالاسم فقط ولم يكن أيّ معنى لتسميتهم بهذا الاسم[3].

واعترف مثل هؤلاء المفكّرين بصراحة أنَّ هناك تفاوتاً بين مركز الخليفة التابع وبين الحقوق المدَّعى بها المتصلة بهذا اللقب بأنَّه حامي الإسلام وعليه أن يدعو للجهاد ضدّ أعداء الدِّين. ثم نما شعور بأنَّ القوة السياسية ومراقبة القوى المسلحة يجب أن تضم إلى مثل هذه الحقوق السامية. ومنذ كان البويهيون يتقلدون الوصاية على الخليفة العباسي في بغداد أعلن عالم ديني واسمه الباقلاني الذي توفي في تلك المدينة سنة 1012م في حكم القادر العديم الأهمية أنَّ الخليفة لا يحتاج أن يكون من قريش عندما رأى انحطاط وضعف هذه القبيلة في ذلك الزمن[4].

وعندما توصَّل أئمَّة القانون أن يعبّروا عمَّا يكنون في صدورهم ويشكون في حقِّ الخليفة العباسي في القاهرة بأنَّه يُمثِّل زعامة العالم الإسلامي فإنَّه من الطبيعي أن لا يتردَّد رجال السيف الذين اقتطعوا لأنفسهم ممالك واستثمروا حالة المجتمع المشوشة لينصبوا أنفسهم ملوكاً مستقلين فتجرأوا بتصريحهم عن شرفهم الخاص. وهذا ما امتاز به المغول الذين انتقل إليهم أعظم قسط من المقاطعات الشرقية في

(1) ابن خلدون، المقدمة: ج1، ص424.

(2) Chroniken der Stadt Mekka vol . III.p. 182.

(3) Ibid. P. 184.

(4) ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص396.

الإمبراطورية العربية الأصلية. ورغم اعتناق المغول للإسلام فإنَّهم ما زالوا تحت نفوذ دستورهم المغولي القديم المُسمَّى (يسق) وهو مجموعة أنظمة تتضمن العرف والعادات التركية والمغولية البدائية[1].

وعندما تأثر أحد هؤلاء الأمراء المغول بالعلماء المسلمين أراد تبديل هذا النظام القبلي والقانوني بالشريعة، ولكن عملية كهذه كانت بطيئة بالنظر للميسم المؤثر الذي وسمت به الفتوحات المغولية. وكان أحفاد جنكيز خان الأشدَّاء أكثر استعداداً ليعلنوا نسبهم بهذا الفاتح العالمي لتبرير ممارستهم للسلطة من أن ينشدوا وثيقة الولاية من أحفاد ذلك الخليفة العباسي الذي قتله أقاربهم سنة (1258م)، وكان اتساع الإمبراطورية المغولية بإدارتها المدهشة التي مكَّنت المسافرين أن يمروا بأمان من ... إلى الحدود الغربية للإمبراطورية البيزنطية أعظم أثر في العالم السياسي ممَّا أنتجته قصة الخلفاء الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة خلال أيام العباسيين الأخيرة في بغداد وأن لا يؤبه للخلفاء الكسالى في القاهرة.

وكذلك فإنَّنا نجد مسلماً غيوراً كغازان خان (ملك فارس) 1295 ـ 1301م الذي جعل الإسلام دين الدولة في بلاده وبنى عدة جوامع وأنعم على المدارس، يفخر بنسبه للفاتح المغولي القاسي الذي قتل المسلمين بدون حساب ودمَّر مراكز الحضارة الإسلامية الكبرى في آسيا الوسطى. كان غازان خان حفيداً لهولاكو فاتح بغداد وقد تربَّى على البوذية ولكنَّه دخل الإسلام قبل أن يرقى العرش سنة (1265م) وقد انتقم لصد المصريين جيوش جدّه هولاكو في معركة عين جالوت، فهاجم سورية

(1) L, Cahun, Introduction à L'histoire de l'Asie, p. 244.

واحتل دمشق في ديسمبر/كانون الأول 1299م بعد أن كسر الجيش المصري شرَّ كسرة وعندما استقبل مندوبين عن زعماء المدينة سألهم من أنا؟ فأجابوه سوية: الشاه غازان بن أرغون خان بن أباكا خان بن هولاكو خان بن طولوي خان بن جنكيز خان، ثم سأل من هو أبو ناصر؟ (سلطان المماليك آنئذٍ) وبينما استطاعوا أن يعطوه اسم أبيه فلم يعرف أحد منهم اسم جد الملك الصبي (كان عمره آنذاك أربع عشرة سنة فقط) فأخرس هذا المندوبين معترفين بأنَّ أمير المماليك لا يستطيع الادّعاء بحق صحيح وأدعو من الله أن يبارك بادشاه الإسلام[1]. وهكذا فقد شعر غازان خان بأنّه لم يكن بحاجة إلى تفويض من الخليفة في القاهرة، ولن يزداد شرفه باتخاذه لقب الخليفة، لذلك فإنَّه دعي بعد احتلاله لدمشق في الخطبة السلطان الكبير سلطان الإسلام والمسلمين[2].

ولكن عندما رسخت عقيدة المغول بالإسلام أزاحت الشريعة القانون الوثني (اليسق) وكفّ الملوك المسلمون ـ الأتقياء بالطبع ـ عن أن يفخروا بنسبهم لجنكيز خان أو لأعداء الإيمان الآخرين، ولكنّهم لم يلتفتوا من جهة أخرى إلى الخليفة العباسي العديم الأهمية في القاهرة للموافقة على طلبهم الطاعة من رعاياهم، وأصبح عادياً أن يرجع للإله نفسه فعندما سئل خليل خان حفيد تيمورلنك عن الحق الذي يملكه ليتولى سمرقند كخلف في إمبراطورية جده تيمورلنك، فيما إذا وصى له بالعرش والملك بإرادته أجاب: إنَّ الله القدير الذي وهب العرش والملك لتيمورلنك خلعه عليَّ أيضاً[3]، ثم طرده عمه الذي كان أقوى وأنشط منه

(1) رشيد الدّين: جامع التواريخ، ص327 من (مخطوط في مكتبة دائرة الهند).
(2) مفضل بن أبي الفضائل: تاريخ السلاطين المماليك، ص483.
(3) عبد الرزاق السمرقندي: مطلع السعدين ومجمع البحرين.

والذي التجأ لنفس السلطة المسلم بها معلناً الخلود لله وحده له الملك يعطيه وينزعه عندما يريد، وقد وجد العلماء الدينيون تبريراً لهذا الالتجاء المباشر لتعيين إلهي في كلام الله المنزّل مستشهدين بالآية: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

وكان يطمح الشاه الرخ لا شكّ حسب هذا الادعاء بتعيين الإله لمركزه المبجل في العالم الإسلامي بأن يعترف به خليفة وسيُداً أعلى لكُلّ الأمراء المسلمين ولا يستغرب أن يذعن له جيرانه الذين كان يحقّ لهم أن يهابوا جيوشه فيحدث عن قره يوسف زعيم التركمان في دولة (قره قونيلو) وهو يكتب إلى الملك العثماني محمد الأول حوالي سنة 1416م ينذر بسياسة الملك التيموري التوسعية كالشاه رخ بهادر كرغاني أدام الله أيام خلافته إلى الأبد[2] ويسميه حمزة بك رئيس التركمان في دولة (آق قونيلو) (من سنة 1406 إلى 1444م) في كتاب للسلطان مراد الثاني[3] ظلّ الله في الأرض، حتى إنَّ السلطان محمد الأول وجد من اللياقة في كتاب للشاه رخ سنة 1416م أن يدعوه باسم جلالتكم المعظَّمة التي نالت مرتبة الخلافة الرفيعة الشأن[4].

ولكن كان شيء آخر عندما حاول الشاه رخ أن يفرض سلطانه على الأمراء المستقلين الذين جعلهم مركزهم الجغرافي بمأمن من توسعه. لقد استقبل برسباي سلطان المماليك في مصر في يناير/ كانون الثاني

(1) سورة آل عمران، الآية 26.
(2) أحمد فريدون: منشآت سلطانية، ج1، ص144.
(3) المصدر نفسه، ج1، ص184.
(4) المصدر نفسه، ج1، ص143.

من سنة 1436م سفيراً للشاه رخ يطلب منه أن يعترف بسيادته العليا وأن يلتمس منه وثيقة بالولاية وأن يضرب النقود باسمه وأن يذكر اسمه في الخطبة، فمزّق برسباي ثوب الشرف الذي أرسله له الشاه رخ إرباً إرباً وجلد رسوله ورماه في حوض حتى أشرف على الغرق والموت من شدّة البرد، ثم أرسل رسالة إلى الشاه رخ يجرّئه أن يأتي بنفسه إلى مصر ليثأر للإهانات التي وجّهت إلى سفيره، وكتب في الوقت نفسه إلى السلطان مراد الثاني - الذي تلقّى مثل هذه الدعوة ولكنّه اعتبرها قضية دينية - يدعوه لينضم إليه في حلف ضدّ الشاه رخ[1]، ولم تكلل جهود الشاه رخ أيضاً بالنجاح في الهند فقد ترك لنا عبد الرزاق السيئ الحظ بياناً حياً عن فشله المريع في مهمة إلى كاليكوت[2] وإن كان صحيحاً أنّ خزر خان العديم الأهمية أحد ملوك دولة الأسياد في دلهي (1414 - 1421م) جعل اسم الشاه رخ يقرأ في الخطبة كما كان من أمر أبيه تيمورلنك من قبله[3]، فهذه النتيجة تكاد لا تستحق أن يفخر بها إذ كانت سلطة خزر خان مقتصرة على مساحة محدودة جداً لا تكاد تتعدّى مدينة دلهي.

وقدم الشاه رخ نفسه نصّ الخطبة التي يُقال: إنّ خزر خان قرأها وهي: اللّهمَّ أدم الملك والدّين إلى الأبد وارفع راية الإسلام وقوِّ أركان الشريعة اليقينة واحفظ ملك السلطان المعظّم الخاقان الأول العادل السيِّد النبيل على رقاب الأُمم حاكم سلاطين العرب والعجم، ظلّ الله على الأرض، حاكم البرّ والبحر، الذي وسع أسس الإسلام والأمن ورفع راية العدل والإحسان، حامي بلاد الله ومعين عبيد الله، والذي أعانه الله ومنحه النصر على أعدائه، مسند الحقيقة والعلم والدّين الشاه رخ بهادر خان. أدام الله

(1) Wril, Geschichre des Abbasidencha lifats in Egypten II pp.201- 2.

(2) Partially translated by Quatremèrc, in notices et Extraits, xiv 1.

(3) E. Thomas, Chronicles of Pathan, kings of Delhi pp. 362- 3.

حكمه وسلطانه في الخلافة على العالم وزاد في خيراته وبركاته على سكّان الأرض[1].

والذي سجّل حياة الشاه رخ عبّر بوضوح عن هذا الطموح إذ يقول: كانت تُذاع ألقابه المقدَّسة على منابر الحرمين[2]. ويظهر أنَّ طموحه هذا لم يتم قطّ. ولا يستغرب إذا تبع مؤرخ عادي تمتع برعاية الشاه رخ ملوكاً شهيرين كهؤلاء، فعندما يقصّ حافظ عبرو شكره لمن أحسن إليه يدعو الله أن يديم له خلافته وقوته إلى الأبد[3] ويصفه بظلّ الله وسلطان العالم أدام الله خلافته وملكه وقوته مدى الزمن[4].

ولكن منذ ذلك العهد شاعت عملية تقلد الخلافة، فكل فرد كان يحاول أن يحيي ما يتعلق بهذا اللقب في الأيام المجيدة من القرن الثامن الميلادي من سلطة عالمية، أو على الأقل ملك، كالشاه الذي كان يثور عليه شعبه بصورة مستمرة بينما كانت عاصمة بلاده سمرقند في أقصى الشمال الغربي من الإمبراطورية الإسلامية الغابرة. والواقع فإنَّ عدة أمراء اتخذوا لقب الخلافة منذ تهديم الأسرة العباسية في بغداد سنة 1258م حتى أصبح عددهم عظيماً في زمن الشاه رخ.

وأول هؤلاء الأمراء الذين أدركوا أنَّ هذا اللقب السامي أصبح تحت تصرف كل من يبتغي سلبه، كان أبا عبد الله محمد أحد ملوك الدولة الحفصية في تونس (1249 ـ 1277م)، فقد حكم أبوه يحيى تونس كعامل

(1) Barthold op. cit. I. pp. 362-3.
(2) حافظ عِبرو، تاريخ شاه رخ: ص2، ب (مخطوط في مكتبة دائرة الهند).
(3) زبدة التواريخ: ص5 ب (المتحف البريطاني).
(4) تاريخ الشاه رخ: ص3 ب.

للموحّدين في مراكش ولكنّه استقل فيها وقد أحجم رغم طموحه عن أن يتلقّب باللقب السامي أمير المؤمنين الذي كان يخصّ سيّده الخليفة الموحد، وكان ابنه أجرأ منه، فلم ينعت نفسه بأمير المؤمنين فحسب، بل بخليفة وإمام أيضاً. وليس مؤكّداً فيما إذا قام بهذا العمل قبل سقوط بغداد بقليل سنة 1258م أو بعده، على أنّ المؤرخين لم يتفقوا على التاريخ الصحيح، ولكن يظهر أنّه تأثّر في قراره هذا بحض ورد إليه من شريف مكة واستمر خلائفه في الدولة الحفصية في حملهم للألقاب نفسها.

وعندما انتهت دولة الموحّدين بفتحهم عاصمتهم سنة 1269م دعي أبو عنان فارس في الدولة المارنية (Marinid) التي حكمت مراكش من (سنة 1264 ـ 1470م) أمير المؤمنين، وابن بطوطة الذي أهدى كتاب رحلاته إليه يدعوه بالسيّد الخليفة وأمير المؤمنين والإمام وظلّ الله على أرضه[1]، ولكن قليل من أمراء هذه الدولة الآخرين من عرض مثل هذه الادعاءات.

وبنى غياث الدّين كيخسرو الثالث أحد السلاجقة المتأخرين في آسيا الصغرى مدرسة في سيواس سنة (1271م) وكتب عليها الدّعاء التالي: اللّهمّ ساعد خادمك وخليفتك السلطان الكبير والخاقان المعظّم سيّد ملوك العرب والعجم ظلّ الله على الأرض[2].

ووصفه الشاعر الأمير خسرو علاء الدّين خالجي (1296 ـ 1316م) في سجّل حياته في دلهي والهند بخليفة زمنه وظلّ الرّحمن على رؤوس

(1) ابن بطوطة: ج1، ص4، وج2، ص382.
(2) Revue Sémitique T. III P. 369 و C. Huart, Épigraphie arbe d'Asie Mineure.

البشر[1]، ووصف ابنه قطب الدِّين مبارك شاه (1316 ـ 1320م) على بعض نقوده بالإمام الأعظم خليفة الله في العوالم ونجم قطب الأرض والدِّين أبو المظفر مبارك شاه، وعلى نقود أخرى بالإمام الأعظم نجم قطب الأرض والدِّين أبو المظفر خليفة الله[2]. ووصف دولة شاه[3] أحمد بن إدريس أحد ملوك الدولة الجلائرية Jala'ir التي جعلت بغداد عاصمتها بأنَّه خلف أباه على كرسي الخلافة في عاصمة العباسيين القديمة حوالي سنة (1382م) حتى إنَّ تيمورلنك نفسه (1369 ـ 1404م) رغماً من تظاهره بقلَّة الاهتمام بمؤسسة الخلافة فقد وصفه نظام الدِّين الشامي المؤرخ الذي كلَّفه بكتابة تاريخ حكمه وفتوحاته بملجأ الخليفة وظلِّ الرَّحمن[4].

وعندما وجد بدر الدِّين ابن قاضي سماوة ـ مؤسس الحركة الدينية الاشتراكية الذي دافع عن مصادقة المسيحيين واقترح اشتراكية الأموال ـ نفوذه ينمو اتَّخذ لقب الخليفة على الأرض ولكن سلطته كانت قصيرة الأمد لأنَّه اختلف مع الجنود الأتراك قرب أزمير وقتل سنة 1417م[5].

وكتب أوزون حسن (حسن الطويل) سلطان آق قونيلو (الغنم الأبيض) الذي حكم ديار بكر وآذربيجان وأرمينيا (1453 ـ 1477م) في كتاب إلى السلطان العثماني محمد الثاني حوالي (1471م) يُسمِّي عاصمته شيراز التي ربحها منذ مدة قريبة فاتحاً بأنَّها قصر كرسي السلطنة وعرش الخلافة[6]، وفي

---

(1) خزائن الفتوح: ص3 (المتحف البريطاني).
(2) H.N. Wright vol, p.cit. pp. 43-44.
(3) تذكرة الشعراء: طبعة إدوارد، ع. براون، ص306.
(4) ظفر نامه: ص5 ـ 1 ـ 3 (المتحف البريطاني).
(5) Franz Nabingar Schejek Bedr ed Der Islam, vol. XI. P. 41.
(6) أحمد فريدون بك: ج1، ص271.

مقدمة أخلاق الجلالي الذي أهداه جلال الدِّين داواني إلى أوزون حسن يدعو المؤلف الله أن يبارك ولي أمره ثم يزيد: أدام الله ظلّ الخلافة إلى الأبد[1].

ودعوة الأمير سليم الشاب العثماني لابنه يعقوب الذي كان زعيم التركمان في قبيلة (آق قوينلو) (1479 ـ 1490م) بسموكم كرسي الخلافة كان أكثر إطراء بلا شكّ[2].

ومن جهة أخرى فقد اتصف محمد الشيباني في العالم الإسلامي (1500 ـ 1510م) مؤسس دولة الأزبك في بلاد ما وراء النهر على نقوده بإمام الزمان وخليفة الرَّحمن[3] ومعاصره السلطان حسين في خراسان الذي توفي سنة (1505م) دعاه ملك قوي كالسلطان العثماني محمد الثاني صاحب الجلالة المعظَّم المنصب بحقّ على عرش الخلافة[4]، ويصفه دولة شاه الذي كتب خلال حكمه بأنّه يزين عرش الخلافة[5]، حتى إنَّ بعض المماليك المتأخرين رغم تأييدهم لمؤسسة الخلافة في شخص العباسي الذي كان يعيش في كنفهم لم يحجموا أن يسلبوه أقدس ألقابه، وهكذا فقد نصب اللوحات كل من السلطان جقمق (1438 ـ 1453م) وقائد بك (1468 ـ 1495م) وقانصو الغوري يصفون أنفسهم بالإمام الأعظم وهم يتقلدون زعامة العالم الإسلامي باستعمالهم لقب مثل لقب الخلافة الذي أصبح مبتذلاً[6].

---

(1) أخلاق الجلالي (طبعة Lucknow 1868م)، ص9 ـ 11.

(2) أحمد فريدون: ج1، ص277.

(3) Barthold op. cit. I. p. 363.

(4) أحمد فريدون: ج1، ص277.

(5) تذكرة الشعراء: ص458.

(6) Max. van Berchem Corpus Inscriptionum Arabicarnm I. pp. 46- 91.

يظهر من الأمثلة التي أوردت أنَّ تقليد الألقاب التي تخصُّ الخلافة لم يكن وفق أسلوب منظَّم، ففي بعض الحالات ينتحل أمير لنفسه اسماً يدلُّ على أنَّه أعظم من معاصريه، وفي حالات أخرى عندما يرغب ملك مسلم أن يطري آخر، أو عندما يرغب أن يتملَّق لولي أمره، فاللغة التي كانت تستعمل كانت تابعة لِهوى كاتب البلاط الخاص، وفي كُلِّ الحالات كان هنالك اغتصاب ويدلُّ على ثلمة في نظرية مركز الخليفة الأصلية الذي هو وحده وفقها ينبوع الشرف وهو وحده يستطيع أن يمنح الألقاب للملوك الأصاغر.

ويمكننا أن نحكم على أنَّ الصدفة كانت تعين لقب الخلافة غالباً بعد أن ترك لنزوة الكاتب الخاص أو رجل الأدب الذي يصف ولي نعمته، بالتباين الموجود أحياناً في المخطوطات، ففي ترجمة حياة تيمورلنك نسختان إحداهما صورة منقولة عن الأخرى إذ تصف الحادث نفسه لكن المؤرخ الأول يدعوه بصاحب الجلالة فقط بينما يزيد الثاني على هذه العبارة حامي الخلافة[1].

وفي نسخة من الإسكندر نامه أيضاً في المكتبة الوطنية[2]، كتبها شاعر تركي اسمه أحمدي سنة 1390م لابن الخليفة بايزيد الأول يعنون الأقسام التي وصفت بها كثير من الأمراء المسلمين كخليفة غازان مثلاً، وخليفة عثمان ولكنَّه يذهب أبعد من ذلك فيصف بشرف مماثل أجداد غازان مثل الخليفة أباغا والخليفة كيخاتو، بينما كانت هذه الشخصيات وثنية وليست مسلمة قطعاً، وفي مخطوطات المؤلف نفسه في المتحف البريطاني[3] يوجد فيها كلمة بادشاه عوضاً عن كل خليفة في الأول.

---

(1) Barthold T. xv. P. 223.

(2) Supplément Turc 635.

(3) Harl 3273 Or 1376 And 7918.

والأمثلة التي أوردت كافية لتظهر كيف كان كل ملك مستقل يفتش عمَّا يدعم منصبه باتخاذه لقب الخلافة. ولا يلام هذا الأسلوب بنظر العلماء الدينيين المتصلبين برأيهم والمتقيدين بنصِّ الحديث، حتى إنَّ بعضهم استطاع أن يجد مبرراً لها، فإنَّ ابن خلدون مثلاً الذي أخذ بنظرية أنَّ المنصب كان نيابة عن النبي وأنَّ وظيفة الخلافة حماية الدِّين وإدارة أعمال العالم، يعترف بأنَّ مثل هذه النيابة يمكن أن يتقلدها سلاطين منفصلون عن بعضهم تمام الانفصال عندما لا يوجد شخص حائز لكُلِّ الصفات المتطلبة في الخليفة في معنى هذه الكلمة الأصلي[1].

(1) ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص387.

عرض الفلاسفة وعلماء الأخلاق

بين المؤثرات التي أدَّت إلى تبني العالم الإسلامي إمكانية استعمال لقب الخليفة على مدى أوسع يمكن أن ندمج دراسة التفكير السياسي اليوناني، فمنذ القسم الأول من القرن التاسع الميلادي عندما كان الحماس لترجمة المؤلفات اليونانية من فلسفة وعلوم بالغاً أقصى شدته انتشرت معرفة هذا الأدب سريعاً في النوادي الإسلامية العلمية، وكان معظم اهتمامهم أولاً في مؤلفات ما وراء الطبيعة والمنطق والرياضيات، ولكن الفلسفة السياسية والأخلاق لم يهملا فحاول كثير من المفكّرين المسلمين أن يؤلفوا بين ما تعلموه من أفلاطون وأرسطو وأفكار الإسلام العقلية وفي ناحية العلوم السياسية قاربوا بين عقيدة أرسطو في الدولة والنظرية الإسلامية في الخلافة.

كان الفارابي أحد الفلاسفة المسلمين الذين رأوا عن كثب انهيار قوة العباسيين وشاهدوا الخليفة وقد أصبح أُلعوبة في أيدي الحرس التركي. توفي سنة 950م عن عمر يناهز الثمانين بعد أن عاش حقباً من الزمن في حمى أحد الأمراء الذين ساعدوا على تمزيق الإمبراطورية العربية وهو سيف الدولة الحمداني. فأنتج بتأثير عقيدة أفلاطون نظرية للدولة المثالية التي يديرها فلاسفة يدركون طبيعة

الكائن الأول وتجلّياته وأصل الطبيعة وسيرها فيقدرون على إرشاد روح الإنسان في جهدها للعودة إلى المصدر الذي انبثقت عنه. وكما أنَّ العالم متناسق كل التناسق تحت سلطة الله السامية بتسلسل الكائنات على الترتيب، وكما أنَّ روح الإنسان مكوَّنة من درجات متعاقبة من الذكاء وبدن الإنسان منظم يرأسه القلب، وهكذا فالدولة هي بصورة مماثلة جسم من أجهزة متدرجة. والدولة المثلى تكون تحت إرشاد رئيس يعرف حقيقة السعادة إذ بدون إرشاد رئيس كهذا لا يستطيع الإنسان أن يتوصل إلى هدفه الخاص وعلى رئيس الدولة أن يتحلّى بفضائل كالعقل وسموّ النفس وحب العدل والاعتدال[1] إلخ... وعلاقة نظرة الفارابي التأملية ضئيلة مع ظرف العالم السياسي الراهن الذي عاش فيه، ولكن من الواضح أنَّ تأملات كهذه يمكن تطبيقها على نظرية الخلافة بمجرد الانقطاع عن النظر إليها من ناحية دينية.

وأنتج جماعة من المفكّرين عرفوا بإخوان الصفا حوالي القسم الأخير من القرن العاشر مؤلفاً جامعاً يبحث في كل فرع من الفلسفة العملية والنظرية، وقد وضعوا عقيدة حازمة في الخلافة متناسقة مع اتساع استعمال لقب الخلافة أوحت إلى العقول المفكرة أن تدرك عجز الخليفة في بغداد، وهكذا فإنَّ رسائل إخوان الصفا لم تمرُّ دون تأثير على تفكير إخوانهم في الدِّين، فقد أعلنوا أنَّ الملوك هم وكلاء الله على الأرض وأنّه وهبهم السيادة على عبيده وبلاده لكي يقدروا أن يقضوا بين خلائقه بالعدل والمساواة وأن يغيثوا الضعيف ويرحموا المحزون ويخضعوا

(1) Alfarabis Abhandlung uber den Musterstaat, ed Fr Dieterici Leden 1895.

الناس لأحكام الشريعة، والقضاة من جهة ثانية خلائف الأنبياء بينما الملك حارس الدّين[1].

وأدرج شهاب الدّين الشهروردي الذي قتل لزندقته في حلب سنة 1191م قبل أن يدرك الثامنة والثلاثين من عمره، العقيدة الفلسفية بقالب أكثر تفكيراً، ففي كتابه حكمة الإشراق يدنو من مسألة الحكومة من وجهة نظر في كثير من وجوهها أفلاطونية فيقول: لم يكن العالم جميعه بدون فلسفة أو بدون رجل يطبقها ويدلّ عليها ببراهين وإشارات صريحة، والخليفة إذن هو الذي سيبقى ما دامت السماء والأرض. وهناك درجات مختلفة للمعرفة الفلسفية والصوفية فإذا جمع كلا هذين الشكلين من الحكمة بسيادة تامة في شخص واحد يكون حينئذٍ خليفة الله على الأرض وإذا لم يكن مثل هذا الشخص فيعود هذا اللقب المبجل إلى الصوفي المطلق لأنَّ الفيلسوف المتأمل الذي لا يكون بالوقت نفسه صوفياً لا يحقّ له الادعاء بها.

واعتنى الشهروردي بكتابه عن الصوفية أن يشرح أنَّ الخلافة لا يجب أن يفهم منها قوة عالمية لأنَّ السلطة التي تلائم هذا الشرف الرفيع يمكن أن تخص رجلاً يعيش في أدقع فقر ويمكنه أن يمارسها سرّاً، فإذا جاءت القوة وتقلد السلطة تقليداً صحيحاً عندئذٍ يعمُّ النُّور العالم وإلَّا فهو مغمور بالظلام[2].

وقد شاع تمثيل الخليفة بالحاكم العادل المثقف في مخطوطات عديدة وخاصة باللغة الفارسية محلاة بالطرف الملونة لإرشاد الأمراء

---

(1) Th'er and Mench, ed Dieterice p. 7. 11. 14- 19.

(2) A Von Kremer Heschichte, der Perschenden Ideen des Islams pp. 92.

وسبكت بقالب بسيط لتلائم ذكاء الأمراء البربر المختلفين الحدود الذين مزقوا الإمبراطورية العربية إلى ممالك منفصلة. كتبت أحدث هذه المخطوطات بالعربية في القرن العاشر والحادي عشر بينما يُقال عامة إنَّه ترجمها عن اليونانية يوحنا بن بطريق في القسم الأول من القرن التاسع وتدعي أنَّها تحوي النصائح التي أعطاها أرسطو لتلميذه الإسكندر في العدل وواجبات الملك المختلفة من تنظيم سياسي وإشهار الحرب.

وألّف وزير السلاجقة الكبير نظام الملك بحثاً في الإدارة حوالي سنة (1092م) أهداها إلى السلطان ملك شاه. ولم يكن هذا بحثاً فلسفياً يشرح النظرية السياسية ولكنَّه عبارة عن نصائح عملية كأساليب الإدارة والمجالسة وتنفيذ العدل والإشراف الدقيق على الموظفين المختلفين العسكريين والعدليين والماليين الذين يجب أن ينقل سلوكهم إلى الملك بواسطة جواسيسه، ولكنَّه يشرح فيه عقيدة الملك التي نالت قبولاً واسعاً في ذلك الزمن فيقول: إنَّ الله يختار في كُلِّ زمن رجلاً يزينه بصفات ملكية ويستأمنه على رفاه عبيده وسلامهم[1].

وفي أخلاق الناصري (نسبة لمؤلفه ناصر الدِّين الطوسي أحد الكتَّاب الفعالين في الفلسفة والدِّين في القرن الثالث عشر) تعمق أكثر في الفلسفة وبحث أكثر تنظيماً للمشاكل السياسية، وبما أنَّه كان في خدمة هولاكو ولمعرفته في الفلك فقد استشاره العاهل المغولي عن النُّجوم التي تلائم القيام ببعض الأعمال، وعندما كان يرافق هولاكو في حصار بغداد أقنعه أنَّه لا يحتمل أن يتبع مقتل الخليفة انتقاماً إلهياً وهو لا يُؤكِّد أنَّه يريد أن يرى هذه المؤسسة السياسية تهدم بهذا الشكل الوحشي.

---

(1) سياست نامه، شيفر: ص5.

وأكثر من ذلك فقد كان ناصر الدِّين شيعياً، وهكذا فكان قليل الاهتمام في عرض العقيدة السُّنية في الخلافة، ولكنَّه شبّه الإمام بالحاكم المثالي كما يصفه أفلاطون أو أرسطو.

واستخدم هذا المؤلف كأساس لأخلاق الخلالي (الذي أصبح فيما بعد أعم مخطوطات الأخلاق التي قرئت في اللغة الفارسية) ألّفه جلال الدِّين الداواني حوالي سنة (1470م) وأهداه إلى أوزون حسن (حسن الطويل) زعيم التركمان في بلاد الغنم الأبيض (آق قونيلو) الذي سبق ذكره مراراً، وقد تأثر كثيراً بفلسفة أرسطو بالشكل الذي عرفه به المفكّرون المسلمون أنفسهم في العالم الإسلامي معرفة واسعة، لكن جلال الدِّين وضع تفكيراً سياسياً بقالب إسلامي أكثر تميزاً ممَّا وجد في كتابات بعض أسلافه، ويذكر الآيات القرآنية المعروفة جيداً التي ذكرت غالباً في أدب ذلك الزمن، ويسجل أنَّ واجب حاكم العالم الأول أن يسند سلطة الشريعة الإسلامية وحينئذٍ يكون ظلّ الله الحقيقي وخليفته ووكيل النبي.

وهكذا يبدو أنَّه إذ خرجت القوة السامية من أيدي العباسيين وعرب قريش وتقلدها أمراء مختلفون من أصل بربري، لا يمكن أن ينسبوا إلى هذا النسب المبجل، صار من اللازم مداراة الضمائر الحية بإيجاد تبرير للطاعة التي يطلب من المسلمين الأتقياء أن يظهروها نحو حكّامهم الحديثين. وقد كان ذلك يوجّه الانتباه إلى كلام القرآن الذي يعطي للقب الخليفة معنى أعم ثم تدخل الفلسفة لتأييد المنصب نفسه. هذه المساعدة كانت ممكنة إذ دخلت الفلسفة في موضوع دراسات العلماء الدينيين المسلمين منذ القرن الثاني عشر بعد معركة طويلة بين العلماء الدينيين والفلاسفة غير السُّنَّة التي أوضحت بأشكال معتدلة لتتناسق مع

عقائد الإسلام الأساسية، حتى إنَّ أولئك الذين لم يكونوا بحاثين معترف بهم في الفلسفة أحسوا بضرورة هذا اللجوء في عرض منطقي للنظرية السياسية فيقولونها بأسلوب أشمل للاستشهاد بكلام الله.

وهكذا فإنَّ المؤرخ حافظ عبرو يقول عندما يذكر شكره لولي أمره الشاه رخ: لقد ثبت بعد براهين قاطعة واضحة أنَّه حسب الشريعة المبجلة لم تعد مرتبة أكثر احتراماً ومنزلة أعلى مقاماً من الملك والسلطان إذ عيّن الله (المجيد في جبروته العلي في كلامه) في كلامه الخالد ملوكاً عادلين ليكونوا خلفاء ونوّاباً عنه وترك لاختيارهم وإرادتهم زمام الأمر والعمل في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ﴾[1] وشهد النبي (صلوات الرَّحمن عليه) بحقيقة هذه العقيدة وشرعية هذا الحق وقد أول بعضهم قوة السلطان بأنَّه ظلّ الله على الأرض وكل من يُظلم يلتجيء إليه[2].

(1) سورة الأنعام، الآية 165.
(2) زبدة التواريخ: ص5 ب (المتحف البريطاني).

العثمانيون والخلافة

يبدو أنَّ لقب الخلافة خلال هذا الدور أخذ معنىً جديداً فلم يعد يتطلب الانحدار من آل العباس ولا الادعاء بالانتساب لقريش، إذ أصبح العاهل المسلم الآن يستمد سلطته مباشرة من الله فهو وكيله وليس خلفاً مجرداً للنبي. والألقاب الأخرى كإمام وأمير المؤمنين التي رافقت حتى الآن الخلافة ألقيت غالباً في عالم النسيان، فقلَّما تسمَّى بها من دعوا أنفسهم خلفاء، وترداد ذكر الآيات: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ﴾[2] في وثائق هذا الدور الرسمية[3] باستثناء تام لكُلّ آية قرآنية أخرى أو حديث أورده عامة العلماء الدينيين في الزمن السابق عندما بحثوا عن الخلافة يدلُّ على النتيجة نفسها. فمن الله ومن الله وحده استمد هؤلاء الحكَّام سلطتهم، وقد أعلن الله بنفسه تعيينهم خلائف له في مثل هذه الآيات. وهكذا فإنَّ لقب الخلافة انتقل من السلطة السامية التي تعودت أن تعين السلاطين إلى كُلّ سلطان اهتم في تقلد لقب اعتبر قبلاً أنَّه منفرد. وعندما ينتحل كثير من الأمراء القليلي الأهمية في العالم

(1) سورة ص، الآية 26.

(2) سورة الأنعام، الآية 165.

(3) أحمد فريدون: منشآت سلطانية: ج1، ص120 و170.

الإسلامي هذا اللقب الفخم فلا نكاد نستغرب عدم رفضه لسلاطين آل عثمان الذين ازدادت قوتهم، وما دام كثير من مراسليهم ينسبون إليهم هذا الشرف في أشكال مختلفة من الخطابات، فمن المحتمل أنّهم لم يرفضوا هذا المديح. فإنَّ مراد الأول غالباً ما دعي هكذا، وعندما احتل أدرنة وفليبوليس ومدناً أخرى سنة 1362م كتب أمير كرمانيا في آسيا الصغرى يهنئه على انتصاراته ويصفه بخليفة الخالق المختار وظلّ الله على الأرض[1]، وفي جوابه يعلن نتيجة شعور ديني أن لا فرق في الطبيعة والمادة بين حاكم ومحكوم، لكن الله خلع على بعض عبيده المختارين شرف الخلافة ليتعهدوا إسعاف بؤس من لا عون لهم، ويشهد الله أنّه منذ تاريخ مجيئه للعرش لم يسترح ولا برهة واحدة لكنّه كرَّس نفسه ليل نهار للحرب والجهاد وكان دائماً مدجَّجاً بالسلاح ليخدم صالح الإسلام، وهكذا فإنَّ كل من يدعو الله لينصر مراداً يخدم صالحه الخاص[2].

والواضح في هذا الكتاب أنَّ مراداً يعتبر نفسه خليفة بمعنى هذه الكلمة التي فهمها به معاصروه، وكتاب تهنئة مشابه أرسله أمير آخر من آسيا الصغرى واسمه أصفانديار بك من قسطموني سنة 1374م يدعو مراد بصاحب السمو الذي بلغ منزلة الخلافة الرفيعة الشأن سلطان سلاطين الإسلام وخاقان خاقانات البشر[3] وفي السنة التالية وصفه حاكم أرضروم في كتاب بسيِّد العالم، زينته الخفية الخلافة[4].

وكان فتح نيش أقصى حملات مراد الموفقة على طريق هنغاريا

---

(1) احمد فريدون بك: منشآت سلطانية، ج1، ص93.
(2) المصدر نفسه، ج1، ص94.
(3) المصدر نفسه، ج1، ص95.
(4) المصدر نفسه، ج1، ص97.

الكبير بعد حصار دام خمسة وعشرين يوماً مناسبة لرسالة تهنئة أخرى من علي بك حاكم كرمانيا الذي يُعبّر عن سروره بنصر زينة عرش الخلافة هذا، ويدعو الله أن يثبت أعمدة الخلافة حتى يوم الدّين[1].

ولم يكن في الحسبان أن يضطر توسّع ابنه وخلفه بايزيد الأول (1289هـ - 1407م) في آسيا الصغرى أمراءها ليمنحوه الألقاب التي تشمل زعامة العالم الإسلامي. ويبدو أنَّ أقوى خصومه كسلطان المماليك في مصر ولزمن ما السلطان أحمد جلاير في العراق، كانا يريان في انتصاراته العسكرية وتوسُّع بلاده تهديداً خطراً لسلامتهما الخاصة، أو على الأقل فإنَّه أخطر خصومه تيمورلنك الذي دمَّره أخيراً وأخذه أسيراً بعد معركة أنقرة المشؤومة (1402م) كان على وشك أن يقدم له مدائحه لولا أنَّ لهجة مراسلاتهما الشديدة لم تترك مجالاً لرقّة اللغة السياسية العذبة.

والحقيقة فإنَّ الغلطة وصلت لدرجة أنَّه عوضاً عن التعداد الطويل للألقاب واستنزال بركات الله فإنَّ تيمورلنك يدعو خصمه بكُلِّ فظاظة (ربما في سنة 1401م) بالعبارة الآتية: أيُّها الملك في رومايا يلديريم (الصاعقة) بايزيد[2]. ولكن عندما نشر بايزيد في آخر نوفمبر/ تشرين الثاني سنة 1395م أخبار انتصاراته على القضاة وموظفي الدولة لم يتردَّد أن يكتب لهم إنَّ الله جهَّزني بطبيعة تحمل علائم الخلافة لأكون سلطاناً فاتحاً للعالم وأنزل كلماته ﴿جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾[3] (بخاتمي ومشورتي الملكيتين)[4].

(1) أحمد فريدون بك: منشآت سلطانية، ج1، ص100.
(2) المصدر نفسه، ج1، ص118.
(3) سورة ص، الآية 26.
(4) أحمد فريدون بك: منشآت سلطانية، ج1، ص120.

وعندما مات بايزيد أسيراً في يدي تيمورلنك كانت تظهر الدولة العثمانية على شفا الدمار، فكان أولاده يحارب بعضهم بعضاً من أجل الإرث. وبقيت الدولة مدة من الزمن مقسّمة إلى ثلاثة أقسام كل يحكم كسلطان مستقل مدعياً أنّه الوريث الوحيد لأبيه. ثم حطم محمد الأول بعد عشر سنوات من وفاة أبيه سنة 1413م آخر خصومه وكان قادراً أن يعيد النظام في الممتلكات العثمانية المتبلبلة، وفي كتبه التي تحمل خبر انتصاره سنة 1415م للأمراء المسلمين المعاصرين له كشمس الدِّين محمد أمير كرمان وحمزة بك ابن حاكم بروسة الذي جاء لمساعدته عند الضرورة مع فرقة من الخيَّالة قبل بضع سنين في ابتداء خلافه مع أخيه موسى[1] وقاضي بروسة[2]، لم يدع محمد الأول بلقب الخلافة لكنَّه استصوب حالاً زي آبائه.

وفي كتاب إلى الشاه رخ سنة 1416م يتحدث عن أعمال السلطة والخلافة[3] وفي كتاب إلى قره يوسف سلطان التركمان في مملكة الغنم الأسود (قره قونيلو) في سنة 1418م يصف عاصمته بدار الخلافة[4] ولم يفقد من يتملقون له وينادونه بالعبارات الفخمة. فقد دعاه سنة 1417م قره إسكندر بن قره يوسف الذي مرَّ ذكره آنفاً (وقد خلفه فيما بعد) والذي كان يحكم آنئذٍ القسم الأعظم من فارس والعراق بأنَّ الشمس في سماء الخلافة[5]، وفي الدور نفسه ابتكر له والي مقاطعة شروان السلطان خليل

(1) J. Voy. Hammer Geschichte des Osmanlseles Reiches vol. I. p. 280.
(2) أحمد فريدون بك: منشآت سلطانية، ج1، ص139 و143.
(3) المصدر نفسه، ج1، ص144.
(4) المصدر نفسه، ج1، ص151.
(5) المصدر نفسه، ج1، ص148.

التسمية الغربية: فهرس كتاب السلطنة وديباجة رسالة الخلافة (الإلهيّة) وبه يشمل محمد الأول بالخلافة والسلطنة[1].

وكان سريعاً الاعتراف الذي تلقّاه ابنه مراد الثاني لدى تبوئه العرش سنة 1421م، فقد استنفد جاهان شاه ميرزا أخو إسكندر أمير الغنم الأسود (قره قونيلو) الذي اعترف سابقاً بخلافة محمد الأول، موارد اللغة الفارسية في كتاب تهنئة لمراد على تبوئه عرش أبيه، فبعد أن أعلمه أنّ الله خلع ثوب شرف الخلافة وبردة السلطنة على خير أبناء آدم، الكائن المنقطع النظير بين نخبة الأُمم المبجلة، استمر في مخاطبة مراد بصاحب الجلالة الذي بلغ مرتبة الخلافة الرفيعة الشأن وملجأ السلطنة وهلمّ جرًّا من سطر إلى آخر في حمد عظمته ورسالته لصالح الإسلام منتهياً بالدُّعاء: ضاعف الله القدير سلطنته وزاد في سني حياته وخلافته إلى يوم الدِّين[2].

ويجيب مراد اعترافاً بتلقّيه هذا الكتاب بأنّه كتب من عرش المجد والخلافة وهكذا يرد المديح إلى جهان شاه ميرزا معترفاً له بحقّه بهذا اللقب[3].

وكان الشاه رخ الأمير العظيم ابن الفاتح القاسي الذي أذلّ جدّ مراد إذلالاً فظيعاً على استعداد أن يخاطب السلطان الجديد بعبارات متملقة كصاحب الجلالة، كرسي السلطنة وملجأ الخلافة، أدام الله القدير خلافتكم وسلطنتكم إلى الأبد. إنّ الله هو الذي أنزل الآية: ﴿جَعَلْنَٰكُمْ

(1) أحمد فريدون بك: منشآت سلطانية، ج1، ص145 فهرست كتاب سلطنة وديباجة رسالتي خلافة.
(2) أحمد فريدون بك: منشآت سلطانية، ج1، ص159 و160.
(3) المصدر نفسه، ج1، ص160.

﴿خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1] والذي أعلن في اسمكم الشهير الخلافة على العالم أجمع[2]. ولم تكن تقدمة الاحترام من حمزة بك رئيس تركمان (آق قونيلو) عظيمة الأثر ولكنّها تستحق الذِّكر لأنّه كان يحكم آذربيجان وديار بكر، فقد دعا الله أن يديم ملك مراد وقوته وخلافته ويرفع في حرمته في السّموات[3]. وكذلك يخاطب حاكم ماردين ناصر الدِّين مراد الثاني عندما يرفع له تقرير انتصاراته الحربية في سنة 1439م بسلطان سلاطين الأتراك والعرب والعجم ونجم الخلافة وظلّ رحمة الله[4].

وإذا كان هناك من يستحق أسمى لقب يحق للعالم الإسلامي منحه فهو بدون شكّ محمد الثاني الفاتح بعد أن أسس عاصمة الإمبراطورية بتركيا في القسطنطينية المدينة المسيحية العظيمة التي أحبطت كل محاولات الإسلام لأخذها بالعنف مدة ثمانية قرون تقريباً. وأوزون حسن (حسن الطويل) في سلالة تركمان (آق قونيلو) واحد الملوك المسلمين الهائلين المعاصرين لمحمد الثاني الذي أصبح فيما بعد خصماً مزعجاً للدولة العثمانية، والذي كانت تتودد إليه حكومات البندقية وطربزون المسيحيتين خوفاً من ازدياد توسع الأتراك، دعا الله وهو يكتب بياناً عن فتحه لآذربيجان والعراق إلى محمد الثاني سنة 1467م أن يديم ملك محمد وخلافته وسلطانه إلى الأبد في الأرض كافة وأن يجعل عدله ورحمته وحنانه يتدفق على العالم[5]. ويخاطب الأمير نفسه في كتاب ثانٍ بعد وقت قصير لينقل إليه خبر انتصارات أخرى عسكرية بنور إنسان عين

(1) سورة يونس، الآية: 15.
(2) أحمد فريدون بك: منشآت سلطانية، ج1، ص170.
(3) المصدر نفسه، ج1، ص173.
(4) المصدر نفسه، ج1، ص209.
(5) المصدر نفسه، ج1، ص267.

الخلافة[1] وعندما استحكمت الخصومة بينهما رمى أوزون حسن هذه التعابير المتملقة جانباً واختار لهجة مهينة في مراسلاته.

يبدو أنَّ محمداً لم يستعمل لقب الخليفة في رسائله الخاصة، أكان للملوك المعاصرين له أو لرعاياه باستثناء أولاده، فيصف ابنه مصطفى سنة 1482م بنور إنسان عين السلطنة ونور روضة الخلافة[2] ويستعمل نوعاً ثانياً من العبارة نفسها لسيئ الطالع ابنه جم عندما كان حاكم قسطمون فيناديه بنور روضة السلطنة ونور إنسان عين الخلافة[3].

كانت العلاقات ودية بين خلفه بايزيد الثاني (1481 ـ 1512م) ويعقوب بن أوزون حسن ذاك الذي سبق ذكر عدائه للبيت العثماني، وقد رغب هذا رغبة صحيحة في تحسين موقفه تجاه بايزيد، فيقول بين عبارات الثناء التي يفرط بها عليه: صاحب الجلالة الذي بلغ منزلة الخلافة، الرفيع الشأن وفخر سلاطين العالم، الجالس بحق على عرش الخلافة[4]، ويخاطب حفيد للأمير نفسه واسمه رستم بايزيد الثاني بعبارات مماثلة فيقول: يا صاحب الجلالة الذي بلغ رتبة الخلافة الرفيعة الشأن، الجالس بحق على عرش السلطنة والمشرف كرسي الخلافة[5].

وهكذا فإنَّ تقلد لقب الخلافة يتسلسل من أب إلى ابنه في الأسرة العثمانية الحاكمة حتى حكم السلطان سليم الأول (1512 ـ 1520م) فقبل أن يصل إلى العرش وعندما كان لم يزل أميراً دعاه رئيس تركمان

---

(1) أحمد فريدون بك: منشآت سلطانية، ج1، ص268.
(2) المصدر نفسه، ج1، ص272.
(3) المصدر نفسه، ج1، ص276.
(4) المصدر نفسه، ج1، ص308.
(5) المصدر نفسه، ج1، ص322.

(آق قونيلو) الذي أقرَّ بخلافة أبيه بايزيد الثاني بمظهر أنوار الخلافة واليد اليمنى للدولة والعدالة والخلافة[1] ويصفه في كتاب آخر بشجرة روضة الخلافة الباسقة السلطان سليم شاه أطال الله أيام ملكه وسني نعيمه في ظلّ خلافة والده العظيم[2]، وكذلك عندما كان لم يزل أميراً تلقّى من أبي المظفر شاه (علو اند) كتاباً يدعوه بخير السلاطين زينته الخفية الخلافة، أعظم من تقلد الخلافة الذي رفع رايات الإسلام في سماء المجد، ودعامة السلطنة والعدل، ويد الخلافة اليمنى السلطان سليم أدام الله أعمدة رخائه في ظلّ صاحب الجلالة أبيه المعظّم خليفة الرَّحمن بين المؤمنين أدام الله ظلّ خلافته وإمبراطوريته إلى الأبد[3].

وقبل أن يصل إلى العرش بمدة طويلة كان على سليم أن يتعود على اعتبار الخلافة (شرفاً) للأسرة العثمانية الحاكمة وأن يدرك تماماً أنَّ أباه كان يحيى بالخلافة وجدّه أيضاً وأجداد آخرون عديدون كانوا يدعون هكذا قبله، وعندما خضع أخوه كوركد في نوفمبر/ تشرين الثاني 1512م للسلطان الجديد وصف سليماً بأنّه واضع أسس أعمدة الإمبراطورية وباني أركان الخلافة الوطيدة ظلّ الله على الأرض[4].

وقد أشيع أنَّ السلطان سليم اتّخذ لقب الخلافة بعد فتحه لمصر وعندما نقلها له علناً في القاهرة المتوكل آخر خليفة عباسي ولكن سليماً (من 1514م) سبق أن تسمَّى بخليفة الله في طول الأرض وعرضها[5] وقد

(1) أحمد فريدون بك: منشآت سلطانية، ج1، ص240.
(2) المصدر نفسه، ج1، ص241.
(3) المصدر نفسه، ج1، ص313.
(4) المصدر نفسه، ج1، ص345
(5) المصدر نفسه، ج1، ص354.

حياه الأمراء المعاصرون له (مع ألقاب أخرى سامية طنَّانة) بأنّه الذي بلغ رتبة الخلافة المبجلة قبل تصميمه لحملة مصر كالسلطان عبيد الله خان حاكم الأزبك في سمرقند الذي أجاب (قبل أن يسمع بنصر جالديران على الأكثر) على كتاب كان أرسله السلطان سليم له في يناير/ كانون الثاني السابق[1]، وكالشاه إسماعيل في كتاب كتب بعد معركة جالديران (أغسطس/ آب 1514م) الذي انكسر فيها شرّ كسرة[2]، وفي قصيدتي تهنئة على انتصاره في جالديران يمدحه خواجه أصفهاني بخليفة الله محمد[3] وملك عرش الخلافة[4]. وعندما يخبر السلطان سليم ابنه سليمان بانتصاره في جالديران يبدأ بالشكل نفسه فيقول: ابني العزيز... نور إنسان عين السلطنة ونور روضة الخلافة الموفق[5].

(1) أحمد فريدون بك: منشآت سلطانية، ج1، ص349.
(2) المصدر نفسه، ج1، ص365.
(3) المصدر نفسه، ج1، ص368.
(4) المصدر نفسه، ج1، ص468.
(5) المصدر نفسه، ج1، ص358.

السلطان سليم في مصر

كان قد صدَّ السلطان سليم فعلياً - بكسره الفرس في جالديران سنة 1514م وبإلحاقه كردستان وديار بكر - قوة الشاه إسماعيل المتزايدة وأمن لزمن ما سياسة خصمه الطموح التوسعية على تخوم الممتلكات العثمانية، وتفرَّغ لتوجيه أسلحته ضدَّ مماليك مصر الذين كانوا معه في خصام دائم. فقد غزا الجنود المصريون أكثر من مرة خلال حكم أبيه آسيا الصغرى واحتفلوا بانتصاراتهم بصفوف طويلة من الأسرى. وليس هناك شك في أنَّ عواطف السلطان للملوك كانت مع الشاه إسماعيل في الخلاف بين فارس وتركيا، ولكن الفرصة الملائمة للمعونة الفعلية أفلتت وبعد أن عاد السلطان سليم منتصراً فليس من المستغرب أن يقلق أمير المماليك فيقضي شتاء سنة 1515م وصيف 1516م في تجهيز جيش للمعركة العظيمة.

ففي مايو/ أيار 1516م غادر الجيش المصري مصر بقيادة السلطان قانصو الغوري يرافقه الخليفة العباسي وأربعة من كبار القضاة. وفي أغسطس/ آب كسره السلطان سليم عند مرج دابق قرب حلب وقتل قانصو الغوري واحتل السلطان سليم حلب ونصب مخيمه خارج المدينة حيث استقبل الخليفة الذي أسر بعد معركة دابق. ويظهر من بيان

المقابلة اليومي أنَّ السلطان سليم أفهمه منزلته المنحطة[1] وسأله عن بلده الأصلية، وعندما أجاب الخليفة بغداد قال السلطان سليم: سنعيدك ثانية إلى بغداد وأعطاه مالاً وسمح له بالعودة إلى حلب. وفي نهاية سبتمبر/ أيلول دخل السلطان سليم دمشق ولحق به الخليفة بعد يومين، وقضى السلطان سليم في دمشق أكثر من شهرين.

وفي أثناء ذلك وجب تعيين سلطان جديد في القاهرة وهو طومان باي وحضور الخليفة هذا الاحتفال كان ضرورياً، فقام المستمسك ـ والد المتوكل الذي استقال من منصب الخلافة سنة 1059م لكبر سنّه ـ بالاحتفال كنائب عن ابنه في أكتوبر/ تشرين الأول 1516م.

وفي ديسمبر/ كانون الأول سار السلطان سليم إلى مصر وغلبت طلائع الجيش المصري في غزة في التاسع عشر من ديسمبر/ كانون الأول وانكسر جيش طومان باي نفسه في ريضانيا قرب القاهرة. وفي الثاني والعشرين من يناير/ كانون الثاني 1517م واليوم التالي قرئت الخطبة باسم السلطان سليم في جوامع القاهرة: اللّهمَّ انصر السلطان ابن السلطان ملك البرّين والبحرين، قاهر الجيشين، سلطان العراقين، خادم الحرمين الشريفين، الملك المظفر السلطان سليم شاه[2].

وفي يوم الثلاثاء التالي شقَّ طومان باي طريقه إلى أراضي المدينة، وقامت المعارك في الشوارع مدة ثلاثة أيام، وقرئت الخطبة يوم الجمعة باسم طومان باي لكن السلطان سليم أفلح في اليوم نفسه في إخراج المماليك من المدينة وهرب طومان باي إلى مصر العليا. وابتدأت

(1) ابن إياس: تاريخ مصر، ج3، ص49، وأجلسه وجلس بين يديه.
(2) المصدر نفسه، ج3، ص98.

المفاوضات بين العاهلين فكان الخليفة حامل رسالة طومان باي إلى السلطان سليم، وأراد هذا أن يجعل من الخليفة والقضاة الأربعة حملة جوابه، لكن الخليفة استنكف وأرسل نائباً عنه ثم جمع طومان باي جيشاً آخر، لكن العثمانيين أسروه في أواخر مارس/ آذار قرب الأهرام وسلّم غدراً إلى السلطان سليم بعد أيام قليلة فقتله في أبريل/ نيسان.

يبدو أنَّ السلطان سليم سمح للخليفة بممارسة جزء من السلطة في الإدارة بعض الأشهر، وهكذا فإنَّ قصره كان غاصّاً بالمراجعين الذين كانوا يوسِّطونه لمصالحهم. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ السلطان سليم وجد من السياسة أن يستفيد من سجينه بهذه الطريقة ليعود أهل القاهرة على الحكومة الجديدة. فيُقال: إنَّ المتوكل خلال هذا الزمن القصير تلقَّى هدايا أكثر ممَّا تلقَّى أجداده من قبله، وحصوله على هذه الثروة أدار لبه[1] ولكن الخليفة التعيس اصطدم بالحقيقة حالاً لأنَّ السلطان سليم نفاه في يونيو/ حزيران إلى القسطنطينية ولم يتقابلا ثانية إلَّا بعد سنة عندما عاد السلطان إلى القسطنطينية في يوليو/ تموز سنة 1518م. ويبدو أنَّ السلطان أظهر له أولاً نوعاً من الاعتبار ولكن موقفه تجاهه تبدل حالاً إذ اختلف الخليفة مع أقاربه من أجل قسمة مرتبهم وظهر إسرافه المخجل وخاصة بشرائه جاريات راقصات لتسليته[2]، وقد انزعج السلطان حتى إنَّه سجنه في قلعة وربما بقي هناك حتى وفاة السلطان سليم في سبتمبر/ أيلول 1520م. وحسب المؤرخ قطب الدِّين الذي تعرَّف عليه في القاهرة سنة 1536م فقد رجع المتوكل إلى القاهرة في حكم السلطان سليمان وصار خليفة هناك[3] وفي سنة 1523م

---

(1) ابن إياس: تاريخ مصر، ج3، ص105.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص229.

(3) Cronlken der Stadt Mekka, vol. III. P. 185, 1-3.

مارس مرة أخرى وظيفته في تعيين سلطان لمصر كما عمل أجداده من قبله، عندما ثار الحاكم أحمد باشا ضدّ السلطان سليمان واستقل مدة قصيرة[1] وهذا هو آخر عمل سجل عن المتوكل ولكنّه استمر في سكنه في القاهرة حتى توفي سنة 1543م.

والمشاع في هذه الأيام عن العلاقات بين السلطان سليم والخليفة المتوكل هو أنّ الخليفة نقل رسمياً منصبه للفاتح وقدّم له رمزاً لهذا النقل الآثار المقدّسة التي كان يعتقد أنّها من أيام النبي كالبردة التي مرّ ذكرها والتي كان يلبسها العباسيون في بغداد في مناسبات الاحتفال الرسمي، وبعض شعرات من لحيته، وسيف الخليفة عمر. وممّا لا شكّ فيه أنّ السلطان سليم نقل هذه الآثار المشهورة إلى القسطنطينية حيث لم تزل محفوظة في جامع أيّوب كقسم من الغنائم التي غنمها بفتحه مصر. ولكن ليس هناك قطعاً دليل راهن على نقل شرف الخلافة المدعى به، فهناك سجلان في الوقت الحاضر للحملة التي انتهت بفتح مصر يحويان كل ما كان يقع يومياً وهي التقارير التي كان يقدّمها مؤرخ البلاط[2]. فتركيان وفارسي كانوا شهود عيان لنصر السلطان سليم سردوا قصته حسب معلوماتهم الشخصية[3] ولكن لم يلمح واحد من هذين المصدرين الحاليين بأيّ نقل كان، ويبدو أنّهم كانوا ينظروا إلى أثر الدولة العباسية التعيس أنّه غير أهل لملاحظاتهم، ونحن مدينون للكاتب المصري ابن إياس في الأخبار التي لدينا عن وضعية المتوكل خلال هذا العهد الذي

(1) Weil Geschichte des Abbasiden Chalifats in Egypten, vol. II, p. 435.

(2) أحمد فريدون، منشآت سلطانية: ج1، ص398 ـ 406 و406 ـ 448.

(3) Barthold I, pp. 372. 381.

استعلم استعلاماً صحيحاً واهتم بمصير الخليفة العباسي، ورغم أنّه يفصل كثيراً فلا يوجد أدنى إشارة عن نقل مثل هذا المنصب حتى بعد نفي الخليفة المتوكل إلى القسطنطينية فإنّ ابن إياس يشير إلى هذه المدينة بأنّها مجرد كرسي عرش المملكة العثمانية[1].

وممّا يستحق ذكره أيضاً أنّ في الرسالة[2] التي كتبها السلطان سليم إلى ابنه الأمير سليمان مفصّلاً له انتصاراته المختلفة في الحملة والتي بلغت أوجها بفتح مصر لا يذكر قطعاً الخلافة، ولو كان هناك نقل لمثل هذا المنصب الذي اعتبر في الماضي أنّه أعلى وأشرف منصب في العالم الإسلامي، ولو اهتم السلطان سليم بلقب الخلافة حقاً لبدا أنّه لا يقبل التصديق إذ لم يشر إليه أي إشارة في تعداد انتصاراته لأنّ من الواضح من هذه الرسالة إلى سليمان التي تُبيِّن بالتفصيل الحملة من معركة مرج دابق إلى فتح مصر أنّ ما يتبجح به هو اتساع أراضيه العظيم الذي جلبه له نصره والحمد لله سيِّد العالم أنّ مصر بطولها وعرضها وملاطية وحلب ودمشق المقدّسة والقاهرة نفسها ومصر العليا والحبشة واليمن حتى حدود القيروان في الغرب والحجاز ومكة ويثرب والمدينة والقدس دخلت ضمن الممتلكات العثمانية، وأنّ السيِّد أبا الحسن الابن الشاب للشريف أبي البركات ابن الشريف محمد على وشك المجيء إلى قدم عرشي العالمي[3].

وهناك دليل تاريخي ثابت أنّه طرب بنيله حق تسمية نفسه بخادم الحرمين الشريفين هذا اللقب الذي كان يتقلّده السلطان المملوك وليس الخليفة العباسي. وبعد وفاة خصمه في معركة مرج دابق استطاع أن يُقلد

---

(1) ابن إياس: تاريخ مصر، ج3، ص176.

(2) أحمد فريدون، منشآت سلطانية: ج1، ص371ـ379.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص379.

هذا اللقب الذي كان يطمع به منذ يناير/ كانون الثاني 1517م وعندما سمع أنّه وصف في الخطبة في جامع حلب الكبير بخادم الحرمين الشريفين سجد شكراً لله وأظهر بشره ورضاه اللذين كان يشعر بهما وخلع خلع الشرف على الخطيب في المنبر[1]. ولكن في هذا الدور كان لقب الخلافة يحمله أمراء عديدون لا قيمة لهم فلم يعد يشمل ما كان يحمله في العصور الغابرة من الاحترام ولم يكن السلطان سليم جاهلاً أنَّ خصمه البغيض شاه فارس عندما أخذ بغداد قبل سنين قليلة سنة 1508م من التركمان، عيّن حاكماً لعاصمة الإمبراطورية القديمة خصياً بلقب خليفة الخلفاء[2].

وفضلاً عن ذلك فقد تعوّد السلطان سليم وأجداده من قبله أن ينعموا بهيبة كهذه تلائم استعمال لقب الخلافة كما ذكر سابقاً، ولو اهتم السلطان سليم أن يختاره لعمل كما عمل آباؤه من قبله بموجب التعيين الإلهي. ومن المؤكَّد أنّه لم ينظر إلى نفسه كأنّه تعهدها من شخصية حقيرة كالخليفة العباسي في القاهرة والذي فيه وفي أسرته أضاعت الخلافة التاريخية كل حرمتها التي كانت تمتلكها في الغابر بنتيجة الوضعية الحقيرة التي وصل إليها ممثلوها خلال قرنين ونصف من الخضوع لهوى المماليك، وإذا ذكرت الأسرة التي تمتعت بهذا الشرف الرفيع فإنّها تكون أسرته الخاصة أسرة السلاطين العثمانيين، وهو ينسب إليها أنّها الأسرة التي أصبحت دار الخلافة في كتاب حرر إلى حاكم مازندران في ديسمبر/ كانون الأول 1517م بعد شهور قليلة من نفي الخليفة العباسي إلى القسطنطينية[3].

---

(1) Qutb ud-Din Chronihcn der stadt Mekka, III, pp. 278- 9.

(2) J. Von Hammer, Gesch chte Vol. I, p. 902, N. 5.

(3) أحمد فريدون، منشآت سلطانية: ج1، ص383.

وكان أول من ذكر هذا الوهم بأنّ آخر خليفة عباسي في مصر نقل منصبه بقانون إلى السلطان سليم، قسطنطين موراد جا أوهسون في أثره العظيم لوحة عامة للإمبراطورية العثمانية[1]. فأيد تقريره هذا دون الرجوع إلى أيّ مصدر تاريخي ولم يحاول أيّ مؤرخ قبل بمصدره أن يخبر صحة تحقيقه[2]، وهكذا انتقل دون اعتراض من مؤرخ إلى آخر شرقياً كان أو أوروبياً وأضحى أساساً مشتركاً للدعاة الحديثين في العالم الإسلامي في دعم حقوق العثمانيين في الخلافة.

ويمكننا أن نحكم على اللقب الذي فضله السلطان سليم لنفسه من لغة الخطبة التي قرئت في مساجد القاهرة يوم انتصاره العظيم في 23 يناير/ كانون الثاني 1517م. فالسلطان هو اللقب المتردّد في الخطبة مرّات عديدة، وبهذا اللقب تعوّد المؤرخون أن يدعوا ملوكهم عندما ينادونهم وحدهم بدون أي واسطة من النداء المحذلق، ولم يضع السلطان سليم لقباً آخر على نقوده كما كانت العادة عند أسلافه من قبله فقد أدخل والده بايزيد الثاني (1481 ـ 1512م) اللقب سيّد القوة والنصر في البر والبحر واستعاض بعد ذلك مراد الثاني (1574 ـ 1595م) عن هذا بثان وهو سلطان البرين وخاقان البحرين وأدمج محمد الثاني (1808 ـ 1839م) اللقب المتباين سلطان سلاطين الزمن، ولكن لم يُسمِّ أحد من العثمانيين نفسه على نقوده خليفة أو إماماً أو أمير المؤمنين، إذ لسمّوا

---

(1) Constantine mouradgea ohsson- tablean général de l'Empire otto-man

(2) A. Von Kremer Geschichte der, Herrschenden Ideen das Islams, p. 425.
G. Weil Geschichte des Abbasidenchalifais in Egypten II, p. 425.
A. Müller, Der Islam, In Morgon und Abendland I, p. 395.

أنفسهم فيما لو تبعوا عادة الخلفاء العباسيين واعتبروا أنفسهم أنّهم يتمّموا سلسلة هذه الأسرة العظيمة.

وأنجز السلطان سليم عظمته بالسيف، أو بالأحرى بالمدفع، وجعلته فتوحاته أقوى رجل مسلم معاصر، وشمل إمبراطوريته بلاد لم يمارس أي خليفة قبله فيها سلطة فعلية ولم يكن ليقدر أن يزيد في شهرته في عيون العالم الإسلامي لو ادعى لنفسه أنّه خلف الخلفاء العباسيين في القاهرة الذين جهلهم أكثر إخوانهم في الدِّين منذ أجيال، وبإدماجه من جهة أخرى المدينتين المقدَّستين مكة والمدينة في ممتلكاته نال رفعة في الشأن استغاث به كل مسلم في العالم. وكان ظهور البرتغاليين في المياه الشرقية تهديداً لأكثر الدول الإسلامية، وكانت تُهدِّد غاراتهم على مدن البحر الأحمر الساحلية سلامة الحجاج إلى مكة وكان يحق لهم أن يخافوا ملك البرتغال الذي ينوي هدم المدينة المقدَّسة[1] لكنَّه تقدم الآن أقوى وأغنى عاهل في العالم الإسلامي كخادم للحرمين الشريفين وبذلك نال إعجاب كل مسلم صحيح وشكره حتى ولو أثار الرعب في العالم المسيحي.

وعندما كان الملوك المسلمون منذ بضعة قرون يعتبرون ضرورة الالتماس من الخليفة تفويضه بمركزهم فإنَّ علاقتهم بالمدينتين المقدَّستين مكة والمدينة أخذت معنًى جديداً. وبإدراك هؤلاء الملوك ضعف مركزهم بالنسبة لمتطلبات الشريعة الإسلامية، فقد كانوا يرغبون أن يقووه في أعين رعاياهم المسلمين بتظاهرهم بالزهد وبإسرافهم في العطايا الثمينة لهذين الحرمين الشريفين.

(1) Weil. Op. cit, II,p. 395.

ومنذ ابتداء التاريخ الهجري كان هنالك صلة بين مكة والمدينة والخلافة. ولكن إذ صار يعتقد في الأزمنة المتأخرة أنَّ بعض التبرير لحق لقب الخلافة كان مبنياً على حماية هاتين المدينتين المقدَّستين فيبدو أنَّه لم يعلق لمثل هذه الحماية مثل هذه الأهمية في بعض الأدوار السابقة للتاريخ الإسلامي، إذ يمكننا الحكم على أنَّ الخلافة يمكن أن يتقلدها حاكم لا يشمل مكة ضمن دائرة حكمه.

ففي حكم الخليفتين الأمويين يزيد وعبد الملك أي من (681 ـ 692) كان هنالك خليفة منافس في مكة في شخص عبد الله بن الزبير. ثم منذ 930 إلى 950 احتل مكة القرامطة ومنذ 1238 ـ 1250 كانت تحت حكم الدولة الرسولية في اليمن، ونهب القرامطة لمكة سنة 930 الذين نقلوا الحجر الأسود ولم يعيدوه حتى سنة 950 جعل العالم الإسلامي يدرك ضعف الخليفة العباسي في بغداد عندما كانت المدينة المقدَّسة بحاجة إلى حماية.

ومنذ ذلك الزمن ظهر التنافس لحماية المدينة المقدَّسة، ومنذ 918 حاول الخليفة الفاطمي[1] أن يعزّز مركزه بمثل هذه الحماية ولم يكن ذلك إلَّا سنة 969 (السنة التي فيها دخلت مصر ضمن الإمبراطورية الفاطمية) عندما ذكر اسم الخليفة الفاطمي في صلاة الجمعة في مكة باستثناء الخليفة العباسي. ولكن عندما (مثلاً سنة 976) كانت تقاوم مكة كانت تهدّد بالجوع لتخضع لأنّها كانت متعلقة على مصر تمدّها بالقمح، واحتفظ صلاح الدِّين بهذا الامتياز للدولة الأيوبية التي أسسها في مصر سنة (1169م)، واستمر السلاطين المماليك بها منذ 1260م بينما كانت اليمن آنئذٍ تناضل من أجلها.

(1) تأسست هذه الخلافة سنة 909 في المهدية.

ولكن عندما اعتنقت الدولة المغولية الحديثة التأسيس الإسلام حاول ملوك المغول أيضاً الحصول على الاعتراف لأنفسهم في مكة. فأبو سعيد خان فارسَ (1316 ـ 1335م) نجح في مؤامراته مع أحد أخصام أبي نمي Namayy شريف مكة العظيم الذي كان قد توفي سنة 1301م وأفلح سنة 1318م في إدماج اسمه في الخطبة مكان اسم الناصر سلطان مصر، ولكن الجيوش المصرية نجحت حالاً في إيقاف هذا الاعتداء من قِبَل العاهل المغولي[1].

وبعد قرن تقريباً كان من الممكن أن يشمل طموح تيمورلنك رغبته في ممارسة الإشـراف على مكة لأنّه اختلف سنة 1400م مع سلطان المماليك في مصر فرج، وقاد جيوشه إلى سوريا التي كانت آنئذٍ تحت حكم مصر، وحاصر مدينة بعد أخرى حتى انتهى إلى دمشق. ومن المحتمل أن يعود إلى هذا العهد الكتاب غير المؤرخ الذي أرسله تيمورلنك لبايزيد الأول محتجاً على تقليد حاكم مصر لقب سلطان الحرمين الشريفين بحجَّة أنَّ مكة كانت حرم الله والمدينة حرم قبر محمد وأيُّ مجد أعز وأيُّ غبطة أسمى من تسميته أمين هذين الحرمين وخادمهما[2]. وكان وفق مخططات ابنه الطموح الشاه رخ للاعتراف به من العالم الإسلامي أن التمس سنة 1414م من سلطان المماليك جقمق السماح له بعد أن رفض سابقاً سلفه بارسباي أن يرسل عن طريق مصر خلعة للكعبة[3].

ومن المحتمل أن يكون رئيس تركمان (قره قونيلو) الذي مرَّ ذكره

(1) Id, I, p. 314.

(2) أحمد فريدون: ج1، ص128.

(3) يوسف بن تغري بردي: حوادث الدهور، ص13 ب (المتحف البريطاني).

غالباً، قره يوسف الذي كان يحتل عاصمة الخلافة القديمة بغداد، لأنّه كان قادراً على تسهيل سفر الحجاج من العراق خلال سنة 1414م، أن دعا له في مكة، ولكن المؤرخ يوضّح أنّ هذا الدُّعاء كان في المساء خلال الصلاة التي تتبع عادة انتهاء قراءة القرآن الكريم. وهكذا فإنّ قره يوسف لم يحظ بأن يذكر اسمه في الخطبة التي تُقام في صباح النهار نفسه لأنّه ربما ضمنت له اعترافاً بملكه أو على الأقل برئاسة اسمية على العالم الإسلامي[1].

وهكذا أصبح الولاء للمدينة المقدَّسة رمز الوجاهة في العالم الإسلامي في الزمن الذي هبطت حرمة الخلافة إلى العدم. وكل من حكم مصر كان يستطيع أن يشرف على مصير مكة لأنّه كان يستطيع أن يجمع المدينة بقطع الحبوب عنها. وهكذا فقد كان طبيعياً أن يقدم أمير أو شريف مكة خضوعه للسلطان سليم بعد دخوله المظفر للقاهرة سنة 1517م وليس أي معنى ديني لإرساله ابنه البالغ الثانية عشرة من عمره ليطأ بساط سلطان مصر[2]، فإنّ الغلام سبق أن زار القاهرة قبل أربع سنوات عندما دعا قانصو الغوري شريف مكة لزيارته، ولكنّه إذ خرج مرة من مكة وسجن في مصر فقد كان الشريف فطناً فلم يخاطر ثانية بل أرسل ابنه وولي عهده الطفل البالغ من العمر الثامنة عوضاً عنه ولم يكن التبديل ليعني أي إهانة لأنّه حدث أن فسر قانصو الغوري كلمة حظ ألقاها الغلام كإشارة لفأل خير للنصر على العثمانيين[3].

وهكذا لم يكن للسلطان سليم كحاكم لمصر أي وظيفة دينية أو

---

(1) الفامي Chronlken der stadt mekka II p. 295.

(2) Qutb- ud- din, chroniken, III, p. 247.

(3) C. Snouck Hurgron je, mekka , vol. I. p. 102.

روحية بخضوع شريف مكة له. وكان السلاطين العثمانيون لعدة أجيال خلت يظهرون جوداً كثيراً نحو المدينة المقدّسة، وممّا لا شكّ فيه أنّهم كانوا يغلقون أملاً مقابل هذه العطايا لم يكن خائباً فإنّ تبوؤهم العرش رحب به وقدم للسلطان سليم خان[1] الدُّعاء خلال طقوس الحج المقدّسة بعد أن انقطع ذكر أي خليفة في الخطبة منذ فاجعة 1258م باستثناء ما ذكر سابقاً. والسلطات في مكة لم تعترف بأية ظروف جديدة قامت لتبرير تغييرهم في عملياتهم.

وكما شرحنا سابقاً فقد تعوّد السلطان سليم أن يعتبر منذ صغره خليفة وكان عليه أن يدرك أنّ اللقب أسند إلى أبيه وأجداده مدة قرن ونصف، وهكذا فإنّه طبيعي أن يستمر استعمال مثل هذا الاسم خلال حكمه، ولكن ما يمكن ملاحظته أنّه لم يؤت بادعاء جديد لهذا الشرف حتى بعد فتح مصر بأيّ طريقة لها صلة بالخليفة العباسي، ولو أشير إلى تفويضٍ ما لكانت الآية القرآنية ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2] نفسها التي استشهد بها السلاطين العثمانيون منذ أجيال. وهكذا فقد جاء في ديباجة بيان الحملة المصرية الطويل (1516 ـ 1517) حيث وصف السلطان سليم ملك ملوك الأرض في طولها والعرض الأهل للآية ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾[3] البادشاه المبارك ملجأ الخلافة وظلّ الله سليم خان[4]. وبالأسلوب نفس استنزف مفتي بروسة وقاضيها معترفين بتقرير سيّدهما في فتح مصر كل موارد البلاغة في رسالتيهما بتهنئته:

---

(1) Qutb- ud- din. III. P. 286.

(2) سورة ص، الآية 26.

(3) سورة الأنعام، الآية: 165.

(4) أحمد فريدون، منشآت سلطانية: ج1، ص406.

فيدعو السلطان الأول سليم بصاحب الجلالة ظلّ الله البادشاه حامي العالم أمدَّ الله في خلافته وأدام دولته في حمى عون الله[1]. ودعاه الثاني بصاحب الجلالة حليته الداخلية الخلافة وحليته الخارجية العدالة، ثبت الله دعائم سلطنته[2]. وفي نهاية الرسالة يدعو الله أن يجعل صرح هذه الأسرة التي تحمل طابع الخلافة راسخة كقبّة السَّماء[3].

والذي يمكن ملاحظته في لغة هذين الرجلين الدينيين هو أنّهما لا يستعملان الأسماء التقليدية للخلفاء العباسيين كأمير المؤمنين أو إمام، فلو نظر إليه كخلف لآخر خليفة عباسي لما امتنعا عن استعمال هذه الألقاب المقدَّسة منذ قرون، ولكن اللغة التي يستعملانها هي كالتي امتدت منذ أجيال إلى السلاطين العثمانيين من قبله. وكذلك فالسلطان سليم نفسه في رسالاته الخاصة كان يستشهد كما تعوَّد آباؤه من قبله بالآية: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾[4] وعندما ينقل خبر فتحه لمصر[5] (في كتاب الحاكم جيلان) ثم بعده كسرى للشاه إسماعيل سنة 1514م[6] وفي بيانه عن مصدر الخلافة وهو يجهل سلسلة الخلفاء العباسيين التاريخية ويعلن أنَّ الخلافة خلعت أولاً على الأنبياء ثم على السلاطين المبجلين[7] ولقب السلطان هذا كان يحتقر الخلفاء العباسيون تقلده.

وأغرب كل شيء هو الإغفال، فإنَّ ابنه وولي عهده سليمان لا يستعمل

(1) أحمد فريدون، منشآت سلطانية: ج1، ص380.
(2) المصدر نفسه، ج1، ص381.
(3) المصدر نفسه، ج1، ص382.
(4) سورة الأنعام، الآية 165.
(5) أحمد فريدون، منشآت سلطانية: ج1، ص383.
(6) المصدر نفسه، ج1، ص351.
(7) المصدر نفسه، ج1، ص348ـ349.

لقباً يتصل بالخلافة[1] في رسائله لوالده، وكذلك الشيخ إبراهيم والشاه شيروان[2] ومظفر شاه الثاني ملك غوجارات فلم يضمنوه بين الألقاب العديدة التي منحوها للسلطان سليم[3]. وكذلك السلطان سليمان عندما كان يرسل الرسائل سنة 1520م إلى موظفي الدول العظمى وللملوك المعاصرين فإنَّه لا يشير (ولا مراسلوه في أجوبتهم) على أنَّ السلطان سليم كان خليفة، وإنَّ السلطان مظفر بينما كان يستطيع أن يزيد سلسلة من الألقاب كوالدي السلطان الشهير الخاقان المشرف المحبوب خادم بيت الله والحرم فاتح ممالك العرب والعجم[4] (في كتاب إلى أمير مكة) ومثل هذه الإشارات للخلافة في هذه الوثائق الرسمية هي على الشكل نفسه الذي استعمله السلاطين العثمانيون قبل اختفاء الخلافة العباسية في القاهرة بمدة طويلة. ونحن نفتقد الألقاب القديمة المتصلة باحترام العالم الإسلامي بكامله كإمام وأمير المؤمنين وعندما يستعمل السلطان سليمان لفظ أمير المؤمنين فإنَّه يسنده إلى أمير مكة الذي يدعوه بأنَّه سليل أمير المؤمنين (يعني طبعاً علي بن أبي طالب)[5]، ولكنَّه لم يدع نفسه قطعاً هكذا مثلما عمل خلفاء الدولة العباسية العظام.

وجزء هام من بيِّنة تزودنا بها كتابة وضعها على مدرسة في القاهرة أسست سنة 1543م وزير السلطان سليمان الأعظم الذي كان يحمل نفس اسم سيِّده سليمان باشا، فوصف السلطان بالأعظم والخاقان المبجل سيِّد ملوك العرب والعجم محطِّم رؤوس الأكاسرة ومخضع رقاب

---

(1) أحمد فريدون، منشآت سلطانية: ص363 ـ 379.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص392 ـ 394.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص395.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص448.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص448.

الفراعنة، المجاهد في سبيل الله المناضل لإعلاء كلمة الله، فخر سلاطين آل عثمان السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان أدام الله دولته وأمدَّ الله في سلطانه حتى قيام الساعة وساعة القيامة[1]. ولم يكن السلطان التركي في تلك الأيام ليزدري فإنَّ السلطان سليمان قتل بدون رحمة ابنيه الكبيرين وأعز صديق له الوزير الأعظم إبراهيم ويُقال: إنَّ والده أعدم سبعة من وزرائه ولم يكن ليتجرأ رئيس وزارة أبداً أن يصف سيِّده في بناية عامة مبنية على شرفه إن لم يكن مدركاً أنَّ السلطان سليمان يعلق قليلاً من الأهمية على حيازة لقب الخلافة. ولو تقلَّد الفاتح التركي قبل خمس وعشرين سنة هذا اللقب نقلاً عن الخليفة العباسي لكانت الفرصة مناسبة تماماً لتثبت واقع هذا التعاقب بشكل بناء دائم مبني في مركز الخلافة القديم.

وقليلاً ما كان اهتمام السلطان بهذا اللقب الذي أصبح بخساً جداً ومادحوه خاصة عندما كانوا أدباء على أتمّ استعداد للاستفادة منه في إطرائهم الفظّ الكثير، فقد كتب ابن زينل أحد موظفي السلطان سليم الذي رافقه في حملته إلى مصر تاريخ الفتح وفيه يعطيه اللقب «خليفة الله على الأرض»[2] والمؤرخ قطب الدِّين الذي مرَّ ذكره سابقاً والذي توفي سنة 1580م وهو مفتي مكة يصف السلطان سليم بالسلطان المبجل والخاقان الأعظم والأنبل خير خلائف الخلفاء وأرحم وأشرف سلائل سلاطين آل عثمان[3].

وقد استعمل استعمالاً متشابهاً مادحو السلاطين المتأخرين مثلما

(1) Max. Van Nerchem Corpus Inscriptionum Arabicarum. I, p. 606.

(2) Barthold. I, p. 392.

(3) Chroniken III. P.749.

كتب شريف مكة بركات بن محمد بن بركات يهنئ السلطان سليمان في فوزه سنة 1520م ويتحدث عن العرش بأنّه أشهر سلطة وكرسي لأشرف خليفة[1] ويدعو لبقاء حكم خليفة الله[2]. وتسميات كهذه كانت نادرة في النثر وتقع غالباً في الشعر. وكما تظهر عبارة خليفة في شعر حسان بن ثابت في عثمان بن عفان كذلك فإنّ المفتي أبا السعود الذي كان يؤم جنازة السلطان سليمان رثاه واصفاً إيّاه بمحور سلطنة العالم ومركزه، المُسمَّى خليفة الله في أقصى نهايات الأرض[3]. ووصف قطب الدِّين خلفه السلطان سليم الثاني (1566 ـ 1574م) في قصيدة كتبها على شرف هذا السلطان بخليفة هذا الزمن في البر والبحر[4]. وفي البيان الذي يذكر فيه إعادة بناء المسجد الحرام في مكة يدعوه بخليفة الله على أرضه[5].

---

(1) أحمد فريدون، منشآت سلطانية: ج1، ص449.
(2) المصدر نفسه والجزء والصفحة نفسهما.
(3) Chronlken der Stadt Mekka. III, p. 329.
(4) Ibid. III, p. 329.
(5) Ibid. III, p. 329.

الأباطرة المغول في الهند

لم يستطع أن ينافس السلاطين العثمانيين خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر في الثروة واتساع الأراضي إلّا الأباطرة المغول في الهند. فإنّهم تقلّدوا حسب عادة أجدادهم في بلاد ما وراء النهر لقب الخليفة ودعوا عاصمتهم دار الخلافة منذ حكم أكبر (Akbar) وحملت نقوده الشهيرة الكتابة الآتية: السلطان العظيم والخليفة المبجل[1]. ولم يكن من سياسة المغول قطعاً أن يعترفوا بسيادة السلطان العثماني، فثروتهم وقوتهم الخاصة جعلتاهم مستقلين دون مساعدة ولو كانت من أي أمبراطورية بعيدة عن إمبراطوريتهم، ولم يوح لهم تيار الخلافة الخضوع لأيّ سلطة إسلامية مركزية. على أنّه لم تكن هذه الوضعية من الاستغلال لتقف حائلاً دون تبادل الألقاب المطرية كما لوحظ سابقاً في المراسلة بين محمد الأول والشاه رخ وبين محمد الثاني وأوزون حسن أو السلطان حسن في خراسان. فقد بدأت المراسلة باسم أكبر سنة 1557م للسلطان سليمان عندما لم يكن أكبر إلّا غلاماً في الرابعة عشرة من عمره، فقد انتهز فرصة وجود الأميرال التركي علي كاتبي في الهند لتأسيس العلاقات مع البلاط العثماني، وضم لآلئ الثقة الملكية إلى خيط

(1) S. Lane Poole Catagogue of Indian Coins in the British Museum, The Mongol Emperors p. XXIII.

المحبة وجمع سلاسل الاتحاد والحب، وبناءً عليه فقد دعى السلطان سليمان بأنّه الذي نال رتبة الخلافة المبجلة واستشهد بالآية المعهودة ثم دعا للخلافة بالدوام. ويذكر للسلطان سليمان في الوقت نفسه أنّه نصّب على كرسي السلطنة وعرش خلافة دول الهند والسند ملك تعادل عظمته عظمة النبي سليمان[1].

وردّد الادعاء نفسه في حكم الشاه جهان عندما عزل السفير التركي أرسلان آغا بشكل فظ بعد وصول أخبار تبؤ السلطان إبراهيم الأول العرش سنة 1640م، فجهزه وزير الشاه جهان بكتاب للوزير التركي الأعظم مصطفى باشا يتشكّى فيه من أنّه لم يدع إمبراطور المغول صاحب الجلالة المبجل الذي يشغل شرف الخلافة خاقان العالم شاهنشاه سلاطين الأرض جمعاء ظلّ الله، باللغة الملائمة لمركزه الرفيع، وكأنّه لا يوجد في البلاط التركي كاتب يعرف مراسيم البادشاهات معرفة تامة وخاصة مراسيم البيت الشهير الذي يحكم الهند والذي ألقى طوق الطاعة على رقاب كل سلاطين سطح اليابسة. ثم يستمر الكاتب في تعداد البلاد المختلفة التي يحكمها المغول الواسعة لدرجة أنّ المسافرين الذين يسيرون باستمرار يومياً لا يستطيعون الوصول إلى نهايتها في آخر سنة أو أكثر. وقبل ختام الرسالة زيدت كلمة دعاء وتهنئة بانتصارات رابع الخلفاء المستقيسين (يعني بهذا اللقب غير الاعتيادي مراد الرابع الأخير) الذي رفع رايات الإسلام وقوّى دين النبي[2]، وأدّى هذا إلى جواب لطيف من الوزير الأعظم يأسف فيه على سوء التفاهم الحاصل ويرغب في تأسيس علاقات ودية وانتهز الفرصة ليُؤكّد عظمة السلطان على أسس الحق الذي

---

(1) منشآت وبعض وقائع سلطان سليمان شاه: ص257 ـ 258 (المكتبة الوطنية فيينا).
(2) عبدي ساري أفندي، دستور الإنشاء: ص28، (المكتبة الوطنية فيينا).

ألهب خيال السلطان سليم الأول، وخاصة أنّه يضمّ في ممتلكاته بيت الله في مكة، وقبر النبي في المدينة، والمسجد الأقصى في القدس، ومرقد الأنبياء والمرسلين الشهيرين. واستعمل الوزير كثيراً من هذه العبارات لتمجيد سيّده كما استعملت منذ قرنين في حكم جده السلطان سليم، كنور إنسان عين الخلافة، ونور روض السلطنة، ظلّ الله على الأرض، سلطان البرين وخاقان البحرين، خادم الحرمين الشريفين السلطان إبراهيم خان[1].

وعندما اختار البيت الإمبراطوري رسمياً لقب الخلافة لم يتردّد المؤرخون ورجال الأدب في استعماله، ويمكن إيراد أمثلة عديدة حتى حكم الشاه عالم الثاني 1759 ـ 1806م الذي لم تكن سلطة فعلية في قسم كبير من حياته حتى ضمن جدران قصره الخاص ويثني مع ذلك مؤرخوه عليه بأنّه خليفة الله وظلّه[2].

وكانت تحاكم دراسة الأحاديث في بلاد الهند مع ذلك بشدة عظيمة، على أنّه بقي قسم كبير من العلماء دائماً على إخلاصهم للعقيدة القديمة التي تقول: إنّ الخلافة لا تخص إلّا قريش.

---

(1) عبدي ساري أفندي، دستور الإنشاء: ص128 ـ 129.

(2) شاه أعلام نامه: ص16، (كاسكونا 1912م).

السلاطين العثمانيون المتأخرون والخلافة

كان إلغاء الألقاب القديمة، الخليفة وأمير المؤمنين وإمام، من كتابات السلطان العثماني الرسمية ناتجاً عن أنَّ الفقهاء الحنفيين الذين يخصون مدرسة القانون التي أخذها السلاطين العثمانيون في كنفهم أخذوا وجهة نظر (مرَّ ذكرها) أنَّ الخلافة لم تدم أكثر من ثلاثين سنة أي حتى مقتل علي، وأنَّه جاءت بعد ذلك حكومة ملكية. وهكذا كانت وجهة نظر النصفي (1068 ـ 1141م)[1] أعظم المشرعين في المذهب الحنفي الذي عرض العقيدة الإسلامية في كتاب قبل في تركيا وعلَّق عليه علماء عديدون هناك، ومنه أخذ هذا الرأي الفقيه التركي العظيم إبراهيم الحلبي (1549م) الذي أصبح كتابه «ملتقى الأبحر» دستوراً للقانون العثماني الرسمي[2].

وحسب هذه العقيدة تردد العلماء الأتراك في وصف حكَّامهم بخليفة وأمير المؤمنين في الوثائق الرسمية، ويبدو أنَّ لقب الخليفة كان له قليل الاعتبار في ديوان الدولة كما يمكن الحكم عليه من مجموعة المراسلات الدبلوماسية التي جمعها فريدون بك أمين سر الوزير الأعظم

(1) عقائد Edition Cureton,p. 4.

(2) M. d'ohsson **Tableau génerale de l'Empire Ottoman** T. I. p. 212.

محمد الصقلي والذي قدمها للسلطان مراد الثالث في عيد الفطر سنة 1575م، وقد صدَّر هذا المجلد[1] بقائمة طويلة من المراسيم مبيِّنة الشكل الصحيح للعنوان الذي يستعمل في الوثائق المقدمة للسلطان، وقد سبكت بقالب متقن من خليط من العربية والتركية والفارسية وبعض هذه النماذج مذكور في الملحق (هـ). ويبدو أنَّ العادة الرسمية لم تجبر على شكل واحد ثابت بل تركته لبراعة كل أمين سر في المراسلة فيتقن التقاريظ السامية حسبما توحي له الفرصة، وبين ستّ عشرة رسالة دورية يقدمها أحمد فريدون بك كنماذج لنداء بادشاه الإسلام لا يوجد واحدة تحوي لقب الخلافة والإيماء الوحيد للخلافة هو في مثل هذه العبارات: «جناب خلافت، خلافت مرتبت، روضتي خلافت» وقد ذكرت هذه أربعة من الستة عشر مثال وكأنَّ حفيد السلطان سليم قليل الاهتمام باللقب الذي اعتبر أنَّه يشمل زعامة العالم الإسلامي كما اعتبره جده المظفر من قبله.

ولكنَّنا نجد في القرن الثامن عشر هذا الادعاء يبدأ في استعماله لغرض خارجي فقد وجد رجال السياسة الترك من الملائم أن يبرزوه عندما يتعاملون مع السلطات المسيحية، إذ يشمل علاقة بين السلطان العثماني والمسلمين الذين يسكنون خارج ممتلكاته تشبه العلاقة بين الدول المسيحية وأعضاء الكنيسة القاطنين في دولة أخرى. والمناسبة الأولى التي أبرز فيها هذا الادعاء في وثيقة دبلوماسية كان في معاهدة كوجوك كينارجي سنة 1774م. كانت هذه المعاهدة بين السلطان عبد الحميد الأول وكاترين الثانية إمبراطورة روسيا، اعترف فيها السلطان باستقلال التتار التام في القرم وكوبان، تلك البلاد التي كانت قبلاً تشكِّل

(1) Ed Constantinople 1264. A. H. vol. I, pp. 24.

قسماً من الإمبراطورة العثمانية، وقد انتهز المفوضون العثمانيون فرصة مطالبة إمبراطورة روسيا بحماية مسيحيي الكنيسة الأرثوذكسية القاطنين ضمن الأراضي العثمانية ليدعوهم بحق مماثل للسلطان العثماني. وكتبت المعاهدة بثلاث لغات مختلفة بالتركية والإيطالية والإفرنسية وليس النص نفسه تماماً في جميعها. فالترجمة التركية تصف السلطان إمام المؤمنين وخليفة الذين يعتقدون بوحدانية الله.(The iman of the believers and the Khalifah of those professing the unity of God) والترجمة الإيطالية تستعمل الكلمات الآتية: الخليفة الإسلامي الأعلى Supreme Maomettan Caliph . والترجمات الإفرنسية تقول في حالة أولى الخليفة الإسلامي الكبير Grand Caliph de Mohametism وفي أخرى الخليفة الحاكم للديانة الإسلامية Sovereign Caliph de Mohametian religion.[1]

وقد استفاد السلطان من حق السلطة الدينية في هذه المعاهدة ليشرف على التتار الذين انتقلوا إلى حكم الروس منذ ذلك التاريخ. فنصّت المعاهدة أنّ لصاحب الجلالة السلطان باعتباره خليفة أعلى للشريعة الإسلامية أن يطلب من التتار في تقاليدهم الدينية، لأنّهم يدينون بدين الإسلام نفسه، أن ينصاعوا للنظم التي تمليها عليهم شريعتهم دون أي تعرّض مهما كان نوعه للحرية السياسية والمدنية التي منحوها[2].

وأول الأتراك هذه الحملة بأنّها تشمل تعيين السلطان خان التتار

(1) C. A. Nallino Appunti sulla natuva del Califfats, in genere e sul present Califfato Ottomano.p. 16.

(2) Barthold op. cit. I, p. 395.

كما تعود الخليفة في الأيام الغابرة أن يرسل كتاب التقليد للأمير المسلم وتسميته لموظفي الشريعة كالقضاة ورجال الإفتاء، لكن الروس أدركوا أنَّ هذا الحق المدعى به للسلطة الدينية يخفي وراءه حقاً ذا طابع سياسي، وفي النتيجة أصر الروس بعد سنين قليلة (1783م) على حذف هذه المادة من المعاهدة.

وممَّا يمكن ملاحظته أنَّ الحقَّ المعترف به في هذه المعاهدة كان لممارسة السلطة حسب التنظيم الذي يمكن اعتباره من وجهة النظر الإسلامية تنظيماً دينياً. فالسلطان يدَّعي لنفسه بالمركز الذي تدَّعي به إمبراطورية روسيا في الكنيسة الأرثوذكسية بينما لا يملك هو أي منصب كنسي. ولكن المسيحية الغربية التي تجهل علاقات رئيس الدولة الروسية بالكنيسة الشرقية الأرثوذكسية ابتكرت تشبيهاً يمكنها فهمه بسهولة، ووصفت الخليفة بأنَّه يشغل في العالم الإسلامي المركز المخصَّص للبابا في المسيحية الكاثوليكية.

يعود مثل هذا التشبيه في الحقيقة إلى القرون الوسطى. فإنَّ روبيرتوس موناكوس Robertus Monachus الذي حضر الحرب الصليبية الأولى جعل كربوغا Kerbogha أميراً للموصل عندما كان يحاصر الصليبيون إنطاكية سنة 1098م، وأرشد سكرتيره بما يأتي Scribe[(1)] religioso, Papae nostro Caliphae ولكن اسم جاك دي فيتري Jacques de Vitry العظيم الذي كان أسقف عكا من 1216 - 1226م ربما كان مسؤولاً عن انتشار هذا التشبيه المضلِّل، ويمكن الحكم على فهمه الضعيف للنظام الإسلامي وبيانه عن سلوك الخليفة. فقد استخبر البابا

---

(1) Historia Hierosolymitana.

يوس الثالث عن الشخصيات الرئيسية بين المسلمين. ومن التقرير المرسل إليه كان بينهم أولاد سيف الدِّين أخي صلاح الدِّين مع بيان عن البلاد التي يشرفون عليها، وذكر أنَّ الابن السادس كان يحكم في بغداد Baudas حيث كان بابا المسلمين الذي يدعى كاباتوس أو خليفة والذي يبجل ويكرم حسب شريعتهم فيعتبر كأنَّه بطريرك روما عندنا ويمكن رؤيته مرتين كل شهر. ويزار ويكرم كل يوم كما يزار ويكرم البابا عندنا، وفي مدينة بغداد البابا هو الخليفة والمدينة هي زعيمة أمة المسلمين وقانونهم كما هي روما عند الشعب المسيحي[1] وربما استوحى مايتوس باريس Matthew Paris بيان من جاك دي فيتري بأنَّ بابا المسلمين يسكن في بغداد ويُدعى خليفة وهو يُهاب ويُكرم حسب شريعتهم كما هو البابا الروماني عندنا[2]. وماركو بولو الذي كتب بعد خمسين سنة تقريباً كان أكثر اعتناء في لغته ولكنَّه يشبه تشبيهاً مضلّلاً أيضاً عندما يتكلَّم عن بغداد بأنَّها مدينة عظيمة اعتادت أن تكون كرسي خليفة كل المسلمين في العالم كما هي روما كرسي البابا لجميع المسيحيين[3].

تشير هذه الأمثلة إلى الخلافة التاريخية ويمكن إيراد مثال آخر هنا نقل من زمن انتهاء الخلافة العباسية في القاهرة ويقع في بيان كتبه بتر مارتير أنغيرا Peter Martyr Anghierra السفير الذي أرسله إلى سلطان المماليك فردينان وإيزابيلا ملكا إسبانيا (1501م) وقد وجد المؤلف عندما أخذ غرناطة هذان البطلان المسيحيان، وكان ينتظر منه أن يعرف

(1) Historia Hiero- Gesta dic per Francos T. I, p. 112- 5.

(2) Chronica Maiora vol. II, p. 400.

(3) The Book of sér Marco Polo, transtated by sir Hnery Yule, 3 rd. vol. I, p. 63.

شيئاً ما عن النظرية السياسية الإسلامية ولكنّه يتكلم عن الخليفة كما يلي:

A. Sumo corumc pontifice Mammetes confirmatur. Habent encim et ipci Summum pontificem is califfas dicitur[1]

ويخلط الكتّاب المسلمون أيضاً في تشابه مغلوط في عدة مناسبات رغماً من أنّهم لا يعرفون من تفصيلات النظرية المسيحية إلّا الشيء القليل. وأقدم هؤلاء هو الجغرافي العظيم ياقوت (1179 ـ 1229م) الذي تكلم عن روما إنّها المدينة التي يسكن فيها البابا الذي يطيعه الفرنجة وهو لهم بمنزلة الإمام متى خالفه أحد منهم كان عاصياً عندهم ومخطئاً يستحق النفي والطرد والقتل[2]. وآخر هو المؤرخ سبط ابن الجوزي (1186 ـ 1257م) الذي يدعو البابا خليفة الفرنجة[3] وأعظم من كليهما هو ابن خلدون (1332 ـ 1406م) فهو أكثر اعتناء في لغته ومن المحتمل أنّه يستعمل كلمة خليفة بمعناها اللغوي كخلف دون أن يقصد أي تشبيه بين المؤسسة المسيحية والمؤسسة الإسلامية. فيشرح أنَّ لكُلّ مذهب مسيحي بطريكه الخاص، وأنَّ بطريك المالكين Melkites يدعى بابا ويعتبر هذا رئيس الكنيسة وخليفة المسيح[4] والعبارة مستعملة الآن لتعيين رئيس الكاثوليك في الكنيسة الأرمنية فيُقال: خليفة الأرمن[5] ولكن معاصره القلقشندي يصفه بدون تردُّد بأنَّه

---

(1) Petrus Martyr Anglerius, De rebus oceancis et novo orbe decades, p. 412.

(2) Geographisches. Wörterbuch ed Wustenfeld vol. II, p. 867.

(3) Recuil des Historiens des croisades T. III, p. 560.

(4) ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص474 و476.

(5) R. Hartmän, Arabin im Weltkrieg Petermans Mitteilungen 63. P. 55.

خليفة المسيحيين المالكيين ويرجعون إليه في كشف ما هو مسموح وممنوع[1].

زيد بمثل هذه المقابلات طابع جديد إلى وظائف الخليفة وخاصة وظيفة السلطة الرُّوحيَّة التي لها معنى ثابت في النظام المسيحي ولكن لا يمكن تطبيقها في الخلافة حسب العقيدة الإسلامية، وقد انتشرت هذه المقابلة في أوروبا بتأثير المؤلف أوهسون العظيم في كتابه Tableau géneral de l'empire ottoman لوحة عامة للخلافة العثمانية الذي نشر لأول مرة في باريس سنة 1787م وفي هذا المؤلف يتكلم عن سلطة السلطان الكهنوتية[2] ويصفه بأنّه بابا للمسلمين[3].

ويمكن الحكم بسهولة على ضلال مثل هذه العقيدة الإسلامية التي يشرحها جاك دي فيتري في المقطع المذكور آنفاً إذا اعتبرنا الفوارق الأساسية بين الديانتين المسيحية والإسلامية.

فالبابا كاهن كأيّ كاهن آخر يقوم بالمعجزة اليومية أمام الجمهور وله أن يغفر عن الخطيئة، والحق يُقال: فإنّ بعض الخطايا تركت لتقديره، وهو وحده يستطيع أن يغفر عنها، وله أن يشرع مبدأ جديداً ويقرّ ما يجب أن يعتقد به المؤمنون حسب منصبه بأنّه معلمهم السامي، وهو الحكم النهائي عند الاختلاف في المبادئ الدينية، وله وحده أن يملي الوظائف الكنسية الموجودة في الكنيسة وله أن يكرس القديسين ويمنح

---

(1) صبح الأعشى: ج5، ص408.
(2) المصدر نفسه، ج1، ص252 و263.
(3) المصدر نفسه، ج1، ص 215 و237.

العفو المطلق، وحسب سلطته العدلية العليا فإنَّ بعض القضايا تركت له ويستطيع أن يغير ويلغي القوانين التي وضعها أسلافه[1].

لم يكن في التاريخ الإسلامي للخلافة قطُّ أثر لكل هذه الصلاحيات، إذ لم يكن الخليفة ليعتبر قط في أيِّ زمن كان مدخراً للحقيقة الإلهية، فلا يستطيع أن يشرع مبدأ دينياً جديداً ولا يعفو عن الخطايا ولا يمارس وظيفة كهنوتية ما، فلا يوجد في الحقيقة شيء ككهنوت في الإسلام، وعلاقته بالدِّين الإسلامي علاقة حماية مجردة، وكمحام عن الدِّين يعلن الحرب على المشركين ويقاصص ويقضي على الضالين، وعند تأممه لصلاة الجماعة وقراءته للخطبة فهو يقوم بوظائف دينية محدودة ولا يمكن لأيٍّ من هذه الوظائف أن توصف بأنَّها روحية.

مثل هذه القوة الرُّوحية التي ادعى بوجودها في العالم الإسلامي نسبت إمَّا للأنبياء أو لقليل من أعظم القديسين لأنَّه كان يعتقد أنَّ بعض الأنبياء والقديسين قاموا بمعجزات، ومؤسسو الأنظمة الدينية يستطيعون بشكل خفي أن يرسلوا قوة روحية، وأن يمنحوا بركات روحية، ولكن لم يدع بأيٍّ من هذه الامتيازات الرفيعة للخليفة.

والتمييز نفسه موجود في أهم لغات العالم الإسلامي الأدبية كالعربية والفارسية والتركية والأوردو بين لفظة دنيوي (Seculiar) وديني (Religious) وروحي وروحاني (Spiritual) كما في اللغات الأوروبية. وكما هو في الأدب المسيحي كذلك في الأدب الإسلامي فلفظة روح تستعمل في معنيين مختلفين:

---

(1) C. Mirbt, Quellen zur geschichte des Papsttums, pp. 127. 156- 7, 421.

(1) سيكولوجي لروح الإنسان.

(2) ديني كما هي في الرُّوح القدس (Holy Spirit)، وفي المعنى الثاني فقط يمكن تطبيق الكلمة عندما تتكلم عن السلطة الرُّوحيَّة للخليفة. ولكن لا يمكن لكاتب إسلامي أن يستعمل لفظة روحي أو روحاني بهذا المعنى دون أن يتعرّض لتهمة الكفر. وتستعمل كلمة روحي أو روحاني ومرادفاتها في اللغات الأوروبية وخاصة اللغة الإفرنسية (Spirituel) في أماكن مختلفة كثيراً، وليس لها المعنى نفسه الضيق كروحي وروحاني، وأبعد من ذلك فإنَّ للفظة في الأدب المسيحي معاني مختلفة وقد تطورت متصلة بنظرة مختلفة تماماً على الدِّين والعالم عن تلك التي تخصّ تيارات الفكر الإسلامي.

وقد أضحى خطأً عاماً مع ذلك في أوروبا الاعتقاد أنَّ الخليفة هو رئيس المسلمين الرُّوحي كما هو البابا الرئيس الرُّوحي للكاثوليك كافة، وهو الحاكم الزمني في الممتلكات العثمانية باعتباره سلطاناً، وهو السلطة الرُّوحية العليا باعتباره خليفة على كافة المسلمين في أيِّ حكومة زمنية قطنوا أو وجدوا. وبالنتيجة له أن يتدخل لممارسة السلطة الرُّوحية وإن فشل في احترام حقه هذا فإنَّه يحتج بموقف من التعصب الديني.

وهناك سبب للاعتقاد أن هذا الخطأ الـذي انتشر في أوروبـا المسيحية عكس تأثيره على الرأي العام في تركيا نفسها. وكيفما يمكن أن يكون فمن المؤكد أنَّ في القرن التاسع عشر أُكِّد حق السلطان العثماني بالخلافة دون مثيل له في القرون السالفة للحكم العثماني، إذ أدمج السلطان عبد الحميد الثاني في بدء حكمه هذا الحق في الدستور الذي نشره في 24 ديسمبر/ كانون الأول 1876م المادة (3): السلطنة العثمانية

السُّنيَّة التي تحوز الخلافة الإسلامية السامية تعود إلى أكبر ابن للسلالة. المادة (4) لأنَّ صاحب الجلالة السلطان خليفة فهو حامي الديانة الإسلامية...

جاء عبد الحميد إلى العرش في زمن اضطراب وكارثة في الإمبراطورية التركية، فقد أعلنت الثورة في الهرسك وتبعتها رأساً حرب مع الصرب والجبل الأسود، وفي السنة التالية (1877م) أعلنت روسيا الحرب أيضاً، وبالرغم من مقاومة الجيوش التركية العنيدة كانت نتيجة الحملة خطرة على تركيا، وأخيراً ضرب الجنود الروس خيمهم خارج أسوار القسطنطينية سنة (1878م) ونقلت معاهدة برلين البوسنة والهرسك إلى النمسا وحصلت رومانيا وصربيا والجبل الأسود على الاستقلال التام وأصبحت بلغاريا دولة مستقلة ضمن السيادة التركية.

وبحرمانه من قسم كبير من الممتلكات الأوروبية حول السلطان نظره نحو آسيا يأمل نيل التأييد المعنوي على الأقل. وقد اهتز العالم الإسلامي من تعدي الدول الأوروبية على الممتلكات التي كانت تخص الإسلام في زمنٍ ما. وكان للأخطار التي نجمت عن الانتصارات الروسية في معاهدة برلين عظيم الأثر لوقوعها في زمن كانت الثقافة والمظهر العقلي يتغيَّر في العالم الإسلامي.

وقد سعى السلطان في توجيه هذه الموجة من العطف لمصلحته الخاصة فثبت منصب خلافته وفتش على الحصول باعتراف لنفسه خارج الحدود التركية بإرساله البعثات إلى مصر وتونس والهند وأفغانستان وجاوا والصين لإقناع مسلمي تلك البلاد بأنّه لم يزل في الوجود خليفة للإسلام. ولو تلقَّى عطفاً فعَّالاً من إخوانه في الدِّين الذين يقطنون في

حكومات أخرى لتنال منصبه قوة. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ تحقيق دولة مستقلة تضمُّ قسماً كبيراً من العالم الإسلامي إذا قوبلت بمجدها السابق كانت ترغب عقول المفكرين المسلمين في وحدة الشعوب الإسلامية المتبعثرة.

وقد حاول الصحفيون الأتراك أن يقنعوا الآخرين بأن ملايين من المسلمين من كافة أقسام العالم، إجابة لدعوة سلطان تركيا، سينضمون تحت لوائه[1]، لكن عبد الحميد أخطأ في اختيار رسله، فكانوا غالباً يجهلون لغة البلاد المرسلين إليها ونجاح مثل هذه الجهود يبدو أنَّه ضئيل. ومن جهة أخرى فقد اصطدمت هذه الدعاية بالعقيدة المقبولة أساساً من معظم الفقهاء السُّنَّة أنَّ الخليفة يجب أن يكون من قريش. حتى إنَّه شعر بمعارضة لادعائه هذا بين رعايا الخليفة أنفسهم، وعندما أمر السلطان عبد الحميد برفع اللوحات التي تحوي مختارات من الكتابات المقدَّسة التي تُبيِّن الصفات المؤهلة للخلافة[2] من المساجد الرئيسية في القسطنطينية لم تبرهن هذه العملية على أنَّها دليل قاطع، وقد وقفت جماعة العلماء السُّنيِّين بمعزل عن ذلك. ومن ناحية ثانية فقد وافق بعض الفقهاء في البلاد الأخرى أن يزوروا القسطنطينية وهناك تلقّوا الأوسمة والمعاشات اعترافاً بجدارتهم[3] وقد نالت جهوده أعظم العطف في تلك النواحي التي كانت تجهل الفقه المنظم والتي كانت تشعر بأن اتباع جماعة إسلامية غير حاكم مسلم يُعدّ إهانة للدين.

ولكن المعارضة القوية كانت تأتي من المفكرين السياسيين الأحرار

(1) A. dela Jonquiére, Histoire de l'Empire ottoman II, pp. 70- 179.

(2) Sir Edwin Pears, Life of Abdul Hamid, p. 149.

(3) C. Snouck, Hurgrunje Verspreide Geschriften, vol. III, p.193.

الذين كانوا لا يرغبون أن يسندوا طاغية قاسياً غير مسؤول كما كان يظهر السلطان عبد الحميد نتيجة لدراستهم للبلاد الغربية وسكناهم في أوروبا. وإلغاؤه للدستور الذي نشره في بداية حكمه في ديسمبر/ كانون الأول 1876م دلَّ على أنَّه لا ينتظر منه تأييد لأيِّ حركة حرَّة في السياسة وعدد الأشخاص الذين أجبروا على الذهاب إلى المنفى هرباً من عذاب جواسيسه العديدين وتهرُّباً من الموت أيضاً بين أيدي الطاغية كان عظيماً، حتى إنَّه صرَّح عند إعادة الدستور في يوليو/ تموز 1908م برجوع 80 ألفاً من المنفى إلى القسطنطينية[1]! والسيِّد جمال (1839 ـ 1896م) الذي كان مثله الأعلى وحدة الإسلام في كُلِّ أجزاء العالم ضمن إمبراطورية إسلامية في حمى خليفة سام أدرك بوضوح عدم ملائمة عبد الحميد ليكون محور لمثل أعلى كهذا. وقد تعوَّد أن يقول: آسف أن يكون هذا الرجل معتوهاً وإلَّا لضمنَّا له ولاء كل الشعوب الإسلامية ولكن ما دام اسمه عظيماً في عقول الناس فيجب أن يعمل هذا الشيء باسمه[2].

وهكذا فإنَّ محاولة إحياء متعلقات الخلافة حكم عليها بالفشل فإنَّ ظلم عبد الحميد كان هائلاً رافقته آلام عظيمة خلف الشك في نفوس السياسيين الأحرار حتى إنَّهم أدركوا أنَّ السلطان نفسه يُشكِّل عقبة كأداء في إقامة أشكال من الحكم الدستوري، ثم كانت ثورة 1908م وخلع عبد الحميد في السنة التالية.

على أنَّ قيمة الادعـاء الذي أقيم لصالح الخليفة بأنَّه يستطيع ممارسة السلطة الرُّوحية على الرعايا المسلمين في الحكومات الأخرى

(1) A. de la Jonquière op. cit. II, p. 221.

(2) Edward G. Nrowne, **The Persian Revolution**, p. 84.

اعتبرت عند التعامل مع الحكومات الأوروبية وإن تخلت عنه الحكومة الدستورية الجديدة. فبعد أن ضمَّت النمسا في أكتوبر/ تشرين الأول 1908م البوسنة والهرسك أشارت المعاهدة مع الحكومة التركية على أنَّ اسم السلطان يجب أن يستمر ذكره كخليفة في صلاة الجماعة، وسيبقى رئيس العلماء الذي يشرف على القضايا الدينية في البوسنة والهرسك على حاله الأولى، فيتبع دائرة شيخ الإسلام في القسطنطينية وعليه أن ينال وثيقة التعيين منه[1].

وبعد سنين قليلة اعترفت أيضاً معاهدة لوزان (1915م) التي أعلنت سيادة ملك إيطاليا على ليبيا بخلافة سلطان تركيا، فقد أقرت أن يضمن اسمه في الخطبة وأن يعيّن شيخ الإسلام في القسطنطينية رئيس القضاء في ليبيا، وأن تدفع الحكومة التركية راتبه باعتباره رئيساً روحياً يستمد سلطته من الرئيس الرُّوحي للدين الإسلامي[2]. أما الحكومة البلغارية فلم توافق على هذا الأمر في معاهدة القسطنطينية (1913م) ولكنَّها وافقت على أن يتلقَّى رئيس الإفتاء تفويضاً بالقيام بوظائفه من شيخ الإسلام ولكن يجب أن ينتخب من رجال الإفتاء في بلغاريا فيما بينهم كما ينتخب الناخبون المسلمون البلغار بقية رجال الإفتاء، ولكن عندما يتم مثل هذا الانتخاب قبل أن يصدر أحد من هؤلاء المفتيين الجديدين أي التقارير في قضايا الشريعة الإسلامية فإنَّ الأحكام هذه يجب أن تخضع لتدقيق شيخ الإسلام إذا طلبت ذلك الأحزاب ذات المصلحة.

وهكذا فإنَّ الخليفة سيستمر في ممارسة السلطة الرُّوحية في مملكة

(1) A. de la Jonquière,op. cit. II,p. 221.

(2) Nallino op. cit, pp. 20- 21.

بلغاريا المستقلة ضمن الدائرة التي تشرف على إدارة الشريعة. وقبلت حكومة اليونان في معاهدة القسطنطينية سنة 1913م بإشراف أيضاً شبيه لذلك مع بعض التقليد بأن يُسمّى ملك اليونان رئيس الإفتاء من بين ثلاثة مرشحين ينتخبهم مجموع ناخبين مكوّن من كُلّ رجال الإفتاء في اليونان على أن يتلقّى رجال الإفتاء التابعون تفويضهم بإجازة يمنحها شيخ الإسلام.

على أنّه اشتد الاعتقاد بأنّ متعلقات الخلافة تتناقض مع حكومة دستورية مسؤولة أمام جمعية وطنية، فإنّ جوّ الخوف والاحترام الذي كان يحيط بالشخصية التي تحمل اسم الخليفة العظيم الذي كان يتوجب نحوه الطاعة العمياء كان يعرّض وزراءه لخطر الاستقالة في كُلّ لحظة كما كان في عهد المستبدين الأتراك السابقين. وقد أظهر تاريخ الخلافة العباسية في القاهرة أنّه كان من الممكن للخلافة أن تحيا بدون السلطة الزمنية بينما من المستبعد أن يتأثر السياسيون الأتراك باعتبارات تاريخية من هذا النوع لأنّهم كان معظم اهتمامهم بمعالجة الوضع السياسي المباشر في بلادهم الخاصة، وكانوا أكثر تأثراً بالنظريات التي قد تعترضها في أيّ لحظة إرادة حاكم مطلق. لذلك أعلنت الجمعية الوطنية الكبرى في نوفمبر/ تشرين الثاني 1922 بأنّ منصب السلطة التركية لم يعد في الوجود وأنّ حكومتها أضحت جمهورية، فعزل السلطان وحيد الدّين وانتخبت الجمعية الوطنية ابن عمه عبد الحميد خليفة على المسلمين.

وجرد صاحب المقام الجديد من كل سلطة حقيقية واختصاص في قضايا البلاد السياسية والإدارية، وخلعت عليه بردة الرسول كما كان لأجداده ولكنّه حرم من قوة السيف وخلافاً عنهم فلم يذهب إلى جامع أيُّوب ليتمنطق بسيف مؤسس البيت العثماني، ويبدو أنّ مهامه اقتصرت

على الزينة فقط، فكان يحضر في السلاملك (الاحتفال) الأسبوعي ويعامل بمنتهى شكليات الاحترام ولكنَّه لم يكن المكان الذي يشغله واضحاً في حياة العالم الإسلامي وفي بلاده نفسها قبل أن يحرم من هذا الشرف وقبل أن تلغى الخلافة على السواء وينفى آخر عثماني حمل هذا اللقب القديم في مارس/ آذار (1924م).

والبحث عن مستقبل هذه المؤسسة هو خارج عن موضوع كتاب خاص بتطورها التاريخي في الماضي. فقد دثرت منذ أمد طويل كحقيقة سياسية أو لاحتوائها على نظريات أعارتها أهمية في الماضي وقد جابهت الجمعية الوطنية التركية والوقائع عندما أقرت إلغاءها.

فالنظرية تتضمن أنَّه يوجد حاكم أعلى واحد في العالم الإسلامي وعلى المؤمنين طاعته، ولكنَّه في القرن الحادي عشر كان يوجد ثماني ملوك مسلمين ادعوا بالخلافة: فالعباسي في بغداد، والفاطمي في القاهرة، وستة أمراء أقل أهمية في إسبانيا. أما عدد الشخصيات التي لقِّبوا بالخلافة في القرن الرابع عشر والخامس عشر فقد سبق بيانه في الفصل التاسع والحادي عشر. ولم يزل حتى الآن أكثر من خليفة سُنِّي في عالم الوجود.

ومن جهة أخرى رأى عدد كبير من المسلمين أنَّ الخليفة العثماني لم يحرم من هذا الشرف بمجرد تصويت الجمعية الوطنية عليه ولم يزل يحترم شريف مراكش من قبل رعاياه بأنَّه حائز على هذا الشرف الذي يخص أسرته منذ القرن السادس عشر. ويستطيع ملك الحجاز باتخاذه هذا اللقب أن يدَّعي بحق لم يكن أي من آل عثمان قادراً على تقديمه وخاصة أنَّه من قريش، وهكذا يرضي أحد المتطلبات القديمة

التي وصفها الفقهاء السُّنيُّون. ولكن في أرخبيل المالايو أمراء مسلمون عدة يحملون هذا اللقب كسلطان جوكياكارتا (Jokyakarta) في جاوا المدعو خليفة الله وكأمير سامبيليونغ (Sambiliung) العديم الأهمية في جزيرة بورنيو. وعلى الساحل الشرقي للجزيرة نفسها رئيسان صغيران لقبيلتي كوتي(Kuteir) وباسير (Pasir) يدعوان أنفسهما بخليفة للمؤمنين وسلطان تيدور (Tidore) في جزر ملكا الذي تعوّد أن يدعو نفسه الخليفة المعظم يعرف الآن بالخليفة المحفوظ كلاهما من أسماء الله[1]. وأخيراً في بانكولان (Benkulen) إحدى مقاطعات جزيرة سومطرة فالخليفة اسم شائع للزعماء الوطنيين[2].

ويبدو أنّه لا أمل مباشر لجماعة سياسية أن تؤسس في العالم الإسلامي تحت زعامة الخليفة في الظروف الراهنة كما تطلب العقيدة الإسلامية. على أنَّ المثل هذا لم يزل معززاً ومن المحتمل أن يبقى أملاً في قلوب الشعوب الإسلامية لعدة أجيال آتية، لأنَّ كل مسلم يعتبر نفسه مواطناً لدولة مثالية سيِّدة الأرض بأجمعها تضمُّ إخوان الدِّين جميعهم في طاعة الإمام الخليفة خلف النبي ونائب الله. فطموح الإسلام هو السيادة على العالم وتطبيق أحكام الشريعة في كُلِّ فرع من الإدارة والحياة الاجتماعية، ولهذه الغاية يعمل المبشرون الدينيون بدون انقطاع، وعلى الخليفة سنة بعد أخرى أن يعلن الجهاد ضد الكفرة حتى لا توجد حكومة على الأرض إلّا حكومة الله، وهناك بين الجهلة مسلمون عديدون يتوهمون أنَّ المثل الأعلى أينع وأنَّ الدولة المسيحية

(1) L. W. C. Van den Berg, **de Mahammeeaansch Vorsten in van Nederlandisch Indiè** t. III. 1910, pp. 23- 28.

(2) **Encyclopedie van Nederlandsch Indiè**, 2d ed vol. Iv, p. 364.

تابعة للخليفة وأنّها تحكم وفق إرادته، ولكن المتعلمين الأحسن تفهماً لحوادث العالم الحديث الراهنة، ولكنَّهم لانغماسهم في دراسة الشريعة والسُّنن، يستمرون في مناقشة تطبيقها في ظروف مثالية لا صلة لها قطعاً مع الحقائق ويتوقون إلى اليوم الذي يمسون فيه دعائم سلطة هذا القانون في دولة مسلمة قحة.

ولم يزل عدد كبير من المسلمين الأكثر إدراكاً للظروف الحديثة والأكثر مجابهة للأهداف والمثل العليا في الأيام الحاضرة يتمسك بإيمان طفولتهم وما يتصل به والذي أضحى عزيزاً لديهم بتأثير الجو المسلم الذي فيه ترعرعوا. ويعد هؤلاء الرجال أيضاً مثلاً أعلى لشكل ما من التنظيم السياسي والاجتماعي يمكن تحقيقه بالنسبة إليهم في نظام من الحضارة مسلم في طابعه وتعبيره، وهم يشعرون بتسلُّط الحكم الأوروبي وجماح الآراء الأوروبية حتى إنَّهم عندما يكون أثر عقائد دينهم ضئيلاً، لا يزال سحر الثقافة الإسلامية يجتذبهم فيتوقون إلى تحطيم سلاسل الحضارة الأجنبية، وهذا الأمل يبقى محتفظاً بعقيدة الخلافة؛ لدى هؤلاء الرجال كما لدى غيرهم.

الملحق (أ)

عقائد الشيعة والخوارج في الخلافة

كان الاهتمام فيما مضى مخصصاً بكامله للخلافة السُّنيَّة لأنَّها لعبت أهم الأدوار في تاريخ العالم الإسلامي مدة أطول وعلى مدى أوسع من البلاد ممَّا كان له أي مذهب آخر من المذاهب الإسلامية، على أنَّه كان في تيار العالم الإسلامي نظريات أخرى أكثر عدداً من نظريات السُّنَّة. ويمكن أن يُقال: إنَّ التفكير الديني أيدته الأحاديث إذ يقول النبي: «اختلاف الرأي في أُمَّتي رحمة (من الله)». وأدركت الأحاديث التطور المذهبي الواسع في العالم الإسلامي أيضاً إذ يقول النبي: «ستقسم أُمَّتي إلى 73 مذهباً». ونُوقش موضوع الخلافة كثيراً كما نُوقشت بقية المواضيع ذات الفائدة للعلماء الدينيين والفقهاء ويمكننا تقديم بيان عن مثل هذه التحريات التي لم ترَ في أيِّ نظام سياسي.

وأول من يدعو إلى الاعتبار الشيعة إذ كان يوجد عدد من الدول الشيعية المستقلة ادَّعى حكَّامها الانحدار من أحد أبناء علي، من الحسن كبني خضير في مكة واليمن (866 ـ 960م) والأدارسة في مراكش (788 ـ 922م) وأمراء مكة في القرون الوسطى، ومن الحسين كالعلويين في

طبرستان (863 ـ 928م) والفاطميين (909 ـ 1171م) في شمال أفريقيا ومصر وسورية والأئمَّة الزيدية في اليمن (860 ـ 1281م) والصفويين في فارس (1502 ـ 1736م) وتجاه هؤلاء وجدت دول شيعية لم تدع الانحدار من عليّ كالحمدانيين في الموصل وحلب في القرن العاشر وممالك بيجابور، Oudh, Golkondo, Bijapue في الهند.

ويعلق العلماء الشيعة أهمية خاصة على العقيدة الشرعية Legitimacy ولم يخصصوا الخلافة لقريش فقط بل لأسرة علي فإنَّهم يرفضون (ما عدا الزيديين) مبدأ الانتخاب ويتمسكون بأنَّ النبي عيّن علياً مباشرة خلفاً له، وأنَّ صفات علي انتقلت إلى أولاده الذين أمر الله أن يشغلوا هذا المنصب الرفيع. وقد تطورت نظرية الشيعة إلى أشكال بعدت عن الوقائع الراهنة كما كانت الحال مع نظرية السُّنَّة لأنَّه عندما لم يعد في الوجود إمام حي (لقب فضَّله الشيعة على لقب خليفة) على الأرض نسب إلى الإمام صفات خارقة. وصحيح أن نقول: إنَّهم ادعوا للإمام الشيعي بقوى روحية الأمر الذي كان مفقوداً تماماً في نظرية السُّنَّة المنافسة، فيُقال: إنَّ النبي نقل مباشرة إلى علي معرفة خفية ونقلها هذا بدوره إلى ابنه وهكذا انتقلت من جيل إلى آخر، فلكُلِّ إمام حسب عقيدة الشيعة صفات خارقة ترفعه عن مستوى بقية البشر ويهدي المؤمنين بحكمه معصومة عن الخطأ وتكون قراراته مطلقة نهائية. وسموُّ الإمام ناتج عن اختلاف في المادة حسب رأي بعض الشيعة لأنَّه مذ خلق آدم انتقل نور إلهي إلى سليل مختار في كُلِّ جيل حتى وصل إلى علي وإلى كل من الأئمَّة من بعده.

وانقسمت الشيعة إلى عدد عظيم من المذاهب لا يمكننا الآن أن

ندخل في تفاصيلها ولكن حسب الاثني عشرية التي ينتمي إليها الفرس الحاليون، فإنَّ الإمام اختفى منذ سنة (873م) وهو يهدي حياة الجماعة في مخبئه غير منظور من أعين الناس. وحتى يشاء الله في عودة الإمام إلى أعين الناس ستبقى السلطة بين أيدي المجتهدين موضحي الشريعة اللامعين. ويعتبر ملك فارس حسب هذه النظرية حامي النظام العام وليس له أن يدَّعي بالخلافة. ففي ملحق القوانين الأساسية التي نشرها الشاه محمد علي سنة (1907م) تقول المادة التالية: لا يجب أن يتعارض مع مبادئ الإسلام المقدَّسة أي قانون للجمعية الوطنية الاستشارية المقدَّسة التي تأسست لمساعدة قدسية إمام الزمن عجَّل الله في ظهوره السعيد وفضل صاحب الجلالة شاهنشاه الإسلام أدام الله ملكه وفضل حجج الإسلام (المجتهدين) أكثر الله من أمثالهم والشعب الفارسي بأجمعه[1].

ويعتقد الزيديون الموجودون حالياً في اليمن أنَّ الإمام لا يجب أن يكون من سلالة فاطمة بنت الرسول بل يجب أن ينتخب، ولذلك فهم يرفضون للإمام حق تعيين خلفه ويقبلون بإمكان وجود إمامين في الوقت نفسه، ويعتبرون أنَّ الظروف قد تبرر التجاوز على الإمام الشرعي لمدة من الزمن وانتخاب بعض من ليس له الحق بذلك.

وعند الشيعة غلاة متطرفون توسعوا في عقيدة السلطة الرُّوحية للإمام حتى اعتبروا علياً وأولاده تجسداً للألوهية. لكن مثل هذه العقائد لم تترك أثراً إلَّا نادراً في أيِّ شكل سياسي منظم.

ويقابل عقيدة الشيعة تعاليم الخوارج الذين يمثلون أقصى اليسار

Edward G. Brown, the Persian Revolution II. 372 - 373. (1)

في النظرية السياسية الإسلامية، وعوضاً عن تخصيص منصب الخليفة أو الإمام لأيٍّ أسرة أو قبيلة خاصة فإنّهم يقرون بإمكان انتخاب أيّ مؤمن لهذا المنصب المبجل ولو كان رقيقاً أو أعجمياً، ثم يفترقون عن أكثرية المفكّرين المسلمين باعتبارهم أنَّ وجود الإمام ليس فرضاً دينياً وأنَّ الجماعة تستطيع في أيّ زمن كان أن تقوم بالفروض التي أوجبها الدِّين ويكون لها شكل شرعي تماماً من الإدارة المدنية دون وجود أي إمام مطلقاً، وإذا وجد في ظروف من الظروف ضرورة لإمام يمكن انتخابه، وإذا رُئي هذا في شكلٍ ما غير مرضٍ أو لم يقم بأوامر عقيدته الدينية الشديدة فيمكن عزله أو قتله.

وتاريخ الخوارج عبارة عن عدد من الحركات الثورية سبَّبت للحكومة الإسلامية كثيراً من الإزعاج والقلق، وكان نجاحهم ضئيلاً في محاولاتهم للاستقلال، وأهم مؤسساتهم السياسية كانت في عمان. وأول انتخاب مسجَّل للإمام قاموا به في هذه البلاد كان سنة 751م لكنه قتل سنة 753م عندما أرسل الخليفة العباسي الجنود لغزو عمان، ثم انتخبوا إماماً ثانياً سنة 791م وثاروا ضد العباسيين وبقوا مستقلين مدة قرن، لكن الجيوش العباسية احتلت عمان سنة 893م وقتلت الإمام وأرسل رأسه للخليفة ولم ينتخب إمام من سنة 1154 ـ 1406م والدولة الحالية الذي جعل عاصمتها مسقط أسسها سنة 1741م أحمد بن سعيد الذي انتخب إماماً بعد طرده للغزاة الفرس، ولم ينتخب إمام آخر بعد موت ابنه ومنذ ذاك الزمن حتى يومنا هذا يدعى سلاطين مسقط بالأسياد، ومن مسقط هاجر قسم من الخوارج واستوطنوا في زنجبار ويوجد قليل من الخوارج في شمال أفريقيا يعرفون بالعباديين.

وبجانب هذه المذاهب التي أفلحت في لعب دورٍ ما في حياة العالم الإسلامي السياسية وجدت عقائد فكرية مختلفة أخرى لكنَّها لم تنجح في الاندماج في أي منظمة سياسية.

الملحق (ب)

القوى الرُّوحية المنسوبة للخليفة

كان يحتج بين وقتٍ وآخر أعظم مؤرخي الإسلام على استعمال العبارة «القوى الرُّوحيَّة» للخليفة، وفيما يلي بعض الأمثلة على هذه الاحتجاجات لنرى كيف لا يمكن تبرير مثل هذا الخطأ الشائع:

ويوضع شيخ الإسلام بجانب الوزير وعلى مستوى واحد لكنَّه حسب نظام آخر من الأفكار، وقد ادَّعى خطأ أنَّه في النظام الرُّوحي كالوزير في النظام السياسي فهو مندوب السلطان باعتباره بابا أو إمام أو خلف الخلفاء، والحقيقة أنَّه لا يوجد قوى روحية كما لا يوجد نظام كنسي في الإسلام والصفة الوحيدة الخاصة والأساسية للمفتي هو تفسير الشريعة: صفة لها قيمتها حيث يكون القانون الكل في الكل. وهو عبارة عن رئيس العلماء هذا الجهاز العدلي والديني معاً ولكنَّه ليس كاهناً ولا محامياً إلَّا في حالات خاصة فتضمن مهامه حفظ الأختام والمحامي الاستشاري ومدير المعهد الديني[1].

(1) Ubicini et Pavet de Courteille, Etat présent de l'Empire Ottoman, pp. 77- 78. (Paris 1876).

«لاحظت في مناسبات عديدة خطأ تمثيل الخليفة بالحاكم الرُّوحي الشبيه بالبابا. إذ لم يتحقَّق الناس بعد تحقيقاً كافياً عن أنَّ السلطان في الأصل تعني القوة والسلطة (قد سبق أن وقعت بهذا المعنى في حديث في زمن عمر وفي كتاب الأم للشافعي) وإذا كان هو الذي يمارس القوة والسلطان فهو في النهاية يتخلّى عن الخلافة ويجعل شرف السلطة وراثياً في أسرته الخاصة. وبحكمه يؤسس أسرة سلطانية بجانب أسرة الخلافة، لذلك فإنَّ وضعية الخليفة الأساسية كزعيم للجماعة لا تتأثر ولا تتغيَّر وإنَّما تتقيد هذه المهام. ويمكن تشبيهه برئيس القصر عند الميروفانجيين وربما هناك ما يوازيه أيضاً في تحديد سلطة الإمبراطور الياباني من قبل الشوغون[1] مدة قرن بكامله. وكان ممكناً أن تسلب من الخليفة السلطة لأنَّ قوته دنيوية وهذه غير ممكنة في حالة البابا لأنَّ مهامه سماوية لأنَّه يملك قوة المفاتيح وسلطة العقيدة وليس لدى الخليفة ما يمكن في أيِّ طريقة كانت مقابلته بذلك، ومن الصعب أن نفهم كيف قامت أسطورة القوة الرُّوحية للخلفاء وكيف وسعها الباحثون رغم ذكائهم لأنَّ تعيين القضاة ومنح الألقاب الطنَّانة لا يمكن اعتبارها قوى روحية»[2].

وهكذا نرى عقيدة القرون الوسطى في الدولة تتلاءم ببطء مع ظروف الزمن المتغيِّرة. وهذه هي الحالة في دائرة السياسة الإسلامية الداخلية الخاصة التي يُعبَّر عنها بمقابلة الإشراف على الدولة مع عدم التدخل في الدِّين، ولأول وهلة تظهر أنَّ هذه المسألة ليست مشكلة قطعاً والحقيقة لو كان الخليفة بابا لما حدثت مثل هذه المشكلة. عندئذٍ يكون

---

(1) لقب يطلق على الحاكم العسكري لليابان منذ 1192م وحتى نهاية فترة إيدو 1868م [الناشر].

(2) Martin Hartmann, de Welt des Islams. I, p. 148. Berlin (1913).

علينا أن نجابه سلطة كهنوتية تامة لكن ليس الخليفة بابا بقدر ما هو حاكم زمني للجماعة المثالية وبجانبه تقف الشريعة مجموعة الأُصول الدينية التي يفسرها رئيس الإفتاء أو شيخ الإسلام، وكما هو معروف جيداً يوجد في الإسلام مقابل القانون التنفيذي للقضاة القانون الاستشاري لرجال الإفتاء الذي يمكن قياسه بالآراء القانونية التي يعطيها الفقهاء الأوروبيون والذي كان قوة ضعيفة يوثق بها القضاة.

ومنذ القرن الخامس عشر أصبح منصب شيخ الإسلام أعلى منصب ديني حكومي في تركيا. ولشيخ الإسلام مرتبة معادلة للوزير الأعظم وهو نائبه ورغماً عن أنّه مفسر تابع للشريعة فهو في وضعية موظف يمكن عزله بهذه الطريقة في حالة أشخاص مفردين فإنّ مسألة إشراف الدول وعدم التدخل في الدِّين تحل[1].

إنّ أصعب نقطة في سياسة الإسلام الاستعمارية هي علاقة الدولة الأوروبية الواضحة مع ادعاءات الإسلام للدولية. ويجابهنا هذا الادعاء مجابهة واضحة في عادة تمجيد خليفة الزمن في دعاء خاص في صلاة الجمعة. فكان ذكر اسم الخليفة في نهاية الدُّعاء عملاً ذا أهمية خاصة خلال تاريخ الإسلام بكامله. فكل من يذكر في هذه المناسبة كانت الجماعة تعتبره في تلك البلاد الحاكم الحقيقي والذي لا يمكن أن يمنعه من ممارسة سلطة الحكومة الزمنية إلّا بعض الظروف الخارجية، وما دام السلاطين يتلقّون تقليدهم من الخليفة (الذي كان في الواقع في معيتهم) كانت هذه العادة منتظمة لكن علاقة الدولة المسيحية بهذه

(1) C. H. Becker, Islampolitik die Welt des Islam. III, p. 103. Berlin 1915.

المسألة مشكلة أخرى، وإذا تكلمنا بصراحة فإنَّ البلاد المسيحية تلغي ذكر اسم الخليفة لأنَّ الخليفة كما بيَّنَّا سابقاً ليس البابا في الواقع بل الحاكم الحقيقي، ومع ذلك فإنَّ دولاً أوروبية تسامحت لأسباب مختلفة واعترفت في بلادها بالدُّعاء لحاكم أجنبي[1].

عندما هدم المغول بغداد سنة (1258م) قبل أكثر من سبعة قرون وزالت الخلافة لم يتخلص العالم الإسلامي من محوره كما لو بقي للخلافة شيء ما للعمل في الحكومة الإسلامية المركزية. والواقع فإنَّ هذه الأسرة الشريفة كانت تعيش منذ أربعة قرون ونصف على أثر إشعاع ضعيف لبهائها الفاني ولو لم ينافسه لمدة من الزمن السلاطين الأقوياء لكانت العملية السبب الحقيقي لذلك. وقد أصبح هؤلاء الخلفاء ضعفاء لدرجة أنَّ بعض الكُتَّاب الأوروبيين الذين اقتنعوا بتمثيل الخلفاء بأنَّهم أمراء دينيون مسلمون نقلوا بإرادتهم أو رغماً عنهم السلطة الزمنية إلى الأمراء المحليين في البلاد الإسلامية. وفقدان السلطة الزمنية بكاملها مع مظاهر الاحترام الغالب من المسلمين للخلافة بدا لهم غير معقول إلَّا في ادعائهم السلطة الرُّوحية كنوع من البابوية الإسلامية. ومع ذلك فلم يكن شيء من هذا والإسلام الذي لا يعرف لا الكهنة ولا التقديس لم يصدف له مناسبة لذلك.

وهناك كما في كُلِّ مكان فضلت الأكثرية الأسطورة على الواقع. فتصوروا أنَّ خلف النبي كان يحرس الجماعة الإسلامية بكاملها كما عمل حسب التقاليد التاريخية خلال قرنين بعد الهجرة، وبقي هذا مدة طويلة حتى اختفت مؤسسة الخلافة بانحطاط الإسلام السياسي، وكيفما

Islamplitik die welt des Islam. P 113. (1)

كان فلم يتصوروه كبابا لكنّه حاكم سام فوق الجميع كأمير المؤمنين الذي سيخضع العالم يوماً ما لقوته[1].

ربما سند بعض رجال الدولة الأوروبيين دون ما قصد الفكرة الإسلامية باعتبارهم المبني على سوء الفهم أنّ الخلافة هي نوع من البابوية الإسلامية. وقد وجدت هذه الفكرة تأييداً في إنكلترا في ذلك الوقت عندما كانت لم تزل تعتبر هذه البلاد حامية الترك ضدّ خطر روسيا.

وقد رئي نافعاً أن يعتقد المسلمون الهنود والإنكليز أنّ الحكومة الإنكليزية على وئام تام مع رئيس الدّين، وقد استفاد رجال الحكومة التركية كثيراً من هذا الخطأ وهم بالطبع لا يستطيعون أن يقروا أمام أصدقائهم الأوروبيين بحقيقة نظرية الخلافة التي تهتم بتوحيد كل المؤمنين تحت رايتها لإعلان الجهاد ضدّ الكفرة. وقد طربوا كثيراً أن وجدوا أولئك الذين شكّلوا حول هذه المؤسسة فكرة خاطئة بكُلّ تأكيد واستحسنها غير المسلمين. وقد اعتنوا جيداً أن لا يصلحوها لأنّهم اكتفوا أنّهم قادرين أمام إخوانهم في الدّين أن يلاحظوا أنهم اعترفوا بحقّ العثمانيين بالخلافة حتى بين أعظم الدول غير المسلمة[2].

كان الخلفاء في البدء خلائف النبي محمد (كما يدلُّ اسمهم) لإرشاد الجماعة الإسلامية وإدارتها، وعندما اتسعت الفتوحات الإسلامية واستقرت تطورت الخلافة إلى دولة سياسية حكمت إمبراطورية وادعت نظرياً بإدارة العالم.وقد جلبنا النظر سابقاً إلى جذور

(1) Snouck Hurgronge, **The Holy War made in Germany**, pp. 16-13. New-York 1915.

(2) Ibid. pp. 27 - 29.

هذه النظرية العميقة التي تأصّلت في النظام الإسلامي وفي المبادئ العامة للتابعين لها. وحتى بعد التجربة السياسية التي ابتدأت بسرعة والتي بلغت أقصاها فقد استمروا في تمسكهم بوهم الوحدة وبقي الخلفاء الذين سلبوا من كُلِّ السلطات الحقيقية رمز هذه الوحدة أو على الأقل ثبتوا وجودهم بشهاداتهم ووضع أختامهم على كل ما يجري خارج نفوذهم مهما كان نوعه.

احتفظ الخلفاء مع ذلك بهذا الوهم باسم أسلافهم وكانوا يدعون حكّام كل البلاد الإسلامية ولم يدعوا قطعاً رؤساء روحانيين، كان تدخلهم مقتصراً على القضايا الدينية البحتة. وقد أنجز هذا النظام حوالي القرن العاشر وطبق قبل تطوره الأولي بإرشاد العلماء ولم ينتظره أحد أن يكون من السلطة المركزية الحقيقية أو الوهمية، ولم يرَ قطُّ رجال الدولة المسلمون والبحّاثون ولا عامة الناس في الخلافة شيئاً آخر إلّا زعيماً شرعياً وحاكماً على كُلِّ المؤمنين[1].

وعندما ظهر، لقرون خلت، عجز الخلفاء العباسيين الأخيرين الواضح أخجل عقيدة الخلافة المتكبِّرة، واستطاع الأتراك في القرن السادس عشر أن يعيدوا لهذا الشرف وحده اسمه وحقيقته. فقد أجبروا بقوة أسلحتهم أكثرية المسلمين السُّنَّة أن يعترفوا بخلافتهم، وأنسوا الناس الشروط التي لا تلائمهم والتي فرضها القانون والرأي العام قديماً على الخليفة، كالانحدار من قريش إن لم نذكر شيئاً آخر. والعالم الإسلامي الذي تعوَّد أن ينحني أمام قوة الوقائع في السياسة أكثر من أيِّ

---

(1) C. Snouck Hurgronge Nederla; end de Islam 2nd Ed. Pp. 67-8- Leiden (1114).

دائرة أخرى تقبل التغيير بدون كثير من الاحتجاج حتى من البلاد التي لم تتصل بالحكومة التركية. وحتى من الشرق الأقصى التي يعود إليه هنود الأرخبيل أضحى السلطان بطلاً محترماً لأسطورة الخلافة الشعبية تحت اسم راجاروم أو سلطان إسطنبول، والرأي الذي شاع بين العلماء المسلمين هو أنَّ أمراء القسطنطينية كانوا حكّاماً شرعيين للعالم بينما كان على بقية الملوك والأباطرة إمّا أن يكونوا أتباعاً لهم أو أعداءهم.

والمنظمة المركزية الوحيدة التي كانت للإسلام والتي لم تزل، هي من نوع سياسي، فلم تعرف قطّ شيئاً يمكن مقابلته بالبابوية أو بالمجالس العامة الدينية. والقضايا الرُّوحية المحضة للإسلام بحثها منذ الثلاثة عشر قرناً الأخيرة العلماء في مختلف البلاد ولم يستطيعوا الاستفادة من أيِّ قسم اختاروه من الضوء الوهاج من رفاقهم في البلاد الأخرى ولم يكونوا موثوقين بأيِّ شيء من التمثيل الرُّوحي لجميع المسلمين[1].

سيطر ميل بين الشعوب الإسلامية الموضوعة تحت إدارة الدول الأوروبية المباشرة لاعتبارهم بطريقة أو أخرى رعايا السلطان الخليفة، ويشرح بعض الباحثين هذا الحادث بالطابع الرُّوحي الذي يفترض أنَّ شرف الخليفة ناله من آخر العباسيين، وبقي منذ ذاك الزمن حتى مزجه الأمراء العثمانيون مع السلطان الزمني. وحسب وجهة النظر هذه فإنَّ العباسيين الأخيرين كانوا نوعاً من باباوات الإسلام بينما كانت السلطة الزمنية أكان في المقاطعات المركزية أو في الممالك الملحقة في أيدي السلاطين المختلفين.

وبهذا الاسم يدير سلاطين القسطنطينية البلاد التي تسمح بإداراتها

---

(1) Ibid. p. 70.

التقلُّبات السياسية أي الإمبراطورية التركية وهم رؤساء روحانيون للمسلمين السُّنَّة جميعهم باعتبارهم خلفاء، ورغماً من أنَّ هذه الفكرة حازت القبول حتى من بعض القوى الكبيرة لجهل رجال الدولة الأوروبيين ورجال السياسة فهي مع ذلك خاطئة إذا فهمنا من السلطة الرُّوحية المظهر الأجوف لسلطة عالمية، وهذا المظهر هو كل ما بقي للخلفاء العباسيين المتأخرين بعد ضياعهم للسلطة الزمنية فلم يحوزوا قطعاً سلطة روحية من أيِّ نوع كانت.

والسلطة الرُّوحية في الإسلام الشيعة مستقرة عند الفقهاء الذين يدعون لهذا السبب في حديث «ورثة الأنبياء» إذ لم يعودوا يستطيعون اعتبار الخلفاء زعماء لهم لأنَّهم ساروا في أساليب دنيوية، وقد تأسسوا مستقلين بجانبهم وحتى فوقهم، وكان على الحكَّام أن يعقدوا الاتفاقات الصامتة معهم يتعهد كل فريق أن يبقى ضمن حدوده الخاصة(1).

أسس محمد ديناً ودولة في الوقت نفسه وكان لكليهما الاتساع نفسه من البلاد مدة حياته، وكان يمارس السلطة الدينية دائماً منفرداً باعتباره نبي الله ورسوله: صفة لا تقبل الانتداب للآخرين حسب رأيه ورأي صحابته ولا انتقال مثل هذه القوى الرُّوحية بعد وفاته بالإرث. ومجموعة الإيحاءات وخاصة القرآن انتهت مع محمد، وكان على المؤمنين بعده أن يقتفوا أثر تعاليمه. ولذا لا يوجد في الإسلام أي أثر لسلطة كنسية ولا أنظمة كهنوتية مقدَّسة، وفكرة التقديس المسيحي والوساطة بين الله والمؤمن الفرد مفقودة تماماً. ولتجد شيئاً يقارب السلطات الرُّوحية

C. Snouk Hurgrong, **Mohammedanim**, pp. 128 - 10. New-York (1) 1916.

لرجال الدِّين الكاثوليك واليونان والبروتستانت عليك أن تذهب إلى تلك المنشورات الإسلامية المتأخرة بعد محمد بستّة قرون، وخاصة الإخاء الدِّيني الذي فيه شفاء حقيقي للأرواح، تلك سلطة روحية حقة تخص فقط العلاقات بين السيِّد والماهر الذي انضم مختاراً إلى الإخاء بعد التلمذة ولكنَّها لا تمسُّ في أية طريقة كانت العقيدة والطقوس[1].

الخلفاء تاريخياً خلائف محمد في إدارة الدولة الإسلامية أجمع أي مجموع المسلمين كافة، باعتبار أنَّه لم يكن يوجد شعوب إسلامية في حكم دولة غير مسلمة كما كانت الحالة في عصور عدة. ولكن (حادث غير قابل للشرح لأول لحظة لأوروبي) هؤلاء الملوك العالمين المسلمين تماماً مثل الملوك المسلمين الآخرين وبينما يملكون السلطة التنفيذية لدرجة غير محدودة وبعض السلطة القضائية فهم محرومون من السلطة التشريعية لأنَّ التشريع هو القانون الإلهي نفسه، أي الشريعة والعلماء هم وحدهم مفسروها. والصفة الوحيدة للخليفة في الدائرة الدينية هو أنَّه يهيئ قوة سلاحه الزمني لكي يحمي الدِّين ضدّ أعدائه في الخارج والداخل وأن يحافظ على صلاة الجماعة في أيام الجمعات[2].

الخليفة هو أمير المؤمنين وليس رئيس الدين الإسلامي وهو حسب العقيدة والطقوس مؤمن عادي مجبر على رعاية العقيدة التقليدية التي يحفظها العلماء فهو محام عن الدين الإسلامي وعدوّ الكفر كما كان الأباطرة والملوك الأوروبيون حماة الدِّين ومستأصلي الكفر في الأزمنة الماضية[3].

---

(1) C. A. Nallino, Appunti Sulla natura del Califfato, p. 5 - 6.

(2) Ibid. p. 7.

(3) Ibid, p. 10.

الملحق (ج)

شيوع عبارة الخليفة

إنَّ من مميزات التطور في العقيدة الإسلامية في تساوي كل المؤمنين وانقياد الإنسان المطلق لإرادة الله وحقارته كمخلوق بسيط، استعمال الألقاب المبجلة - التي تمتع بها أقوى الملوك المسلمين- لأشخاص ذوي كيان حقير في المجتمع. فوضعت كلمة خليفة كعبارة فنية قديماً أي في القرن الأول الهجري في لغة الإدارة المصرية لتدلُّ على الموظف المحلي المالي، فكل واحد منهم له خليفة في العاصمة تدفع له الضرائب[1]، وفي الأزمنة الحديثة تستعمل عبارة الخليفة عامة لتعني الموظف الإداري التركي في دائرة عامة[2].

واستعملت في تركيا لتعني مساعدة مدرس في مدرسة أو صانعاً في مهنة البناء، وكان يحمل مؤرخ حكم السلطان محمد الرابع (1648 - 1687م) الذي كان قهواتياً اسم محمد الخليفة[3]. ويمكن استعمال خليفة

(1) **Greek Papyri of the British Museum**. Vol. IV.

(2) M. d'ohsson op. cit. Vol. VII, P. 211.

(3) J. Von Hammer op. cit. III, p. 474.

لامرأة أو خادمة كبيرة[1]. وتستعمل في الهند لشخص حقير كخياط أو حلّاق أو رئيس ورشة في مصنع وأحياناً لرئيس حراس أو لطاهٍ. وفي مرجع محترم فهي تعبير فني في لغة الصوفيين، ويمكن تسمية رؤساء بعض الأنظمة الدينية الإسلامية بخليفة لأنّهم خليفة مؤسس النظام بينما استعمل اللقب لأشخاص لا سلطة لهم يدعون أنفسهم بمرشدين دينيين[2].

وكما أشير في الصفحات السابقة فإنَّ لقب إمام يمكن استعماله لكل من يقف أمام المؤمنين في صلاة الجماعة، وليس هناك حاجز للقيام بهذه المهمة، والشخص المختص قد يشغل أحط مركز في الهيئة الاجتماعية.

(1) كول بادان بغام، همايون نامه: طبعة بيغيرج، ص136.
(2) C. Snouck, Husgenfl eh Aclehnese. PP. 151 - 3. Seides 1906.

الملحق (د)

لقب السلطان

لم يبحث تماماً حتى الآن تاريخ لقب السلطان في العالم الإسلامي، وقد وقع اللقب نفسه في القرآن بمعنى قوة وسلطة ومن القرن الأول الهجري استعمل في مخطوطات مصرية كتعبير عام لحاكم المقاطعة[1]. واستعمل في تسمية موظف أوكل إليه أمر السلطان كما كان لجعفر بن يحيى صديق هارون الرشيد عندما خلع عليه لقب سلطان (حسب ابن خلدون)[2] ليعين أنّه عهد إليه بإدارة الإمبراطورية العامة. واستعمل للموفق[3] أخي الخليفة المعتمد (870 ـ 892) الذي كان المشرف الحقيقي على قضايا الدولة المدنية والعسكرية بينما كان الخليفة منهمكاً في ملذّاته. وقد شاع استعمال السلطان بين الحكّام المستقلين في الولايات الإمبراطورية وهكذا يبدو أنّ السلاجقة أول من تلقّب به بينما

(1) C. H. Necher, **Beitage zur geschichte Agyptens unter das Islam** p. 90 n6.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ج2، ص9.

(3) الطبري: ج3، ص1894.

تأكد أنَّ محمود حاكم غزنة (998 ـ 1030) كان أول حاكم مسلم هام وصف نفسه به[1]، وكبقية الألقاب المختلفة فقد نال حرمة عندما تقلده الملوك الأقوياء بينما قنع الأمراء الصغار باسم ملك أو خان. وكان يحب المصريون أن يمتدحوا في حكم المماليك أنَّ ملكهم كان الوحيد الذي يحق أن يدعى السلطان[2] وكان يتصف المماليك غالباً بسلطان الإسلام والمسلمين[3] .

(1) S. Lane-Poole, **Mohammaden Dyanasties.**

(2) خليل بن شاهين: ص89 ـ 601.

(3) Maxvan Berchem, **Inschreftense and Syrien Mesopotamies und Kleinasiers** pp. 4.5, 83.. Corpus Inserip tionum Arabicarum v. Index Sul voc.

الملحق (هـ)

ألقاب السلطان العثماني

فيما يلي بعض نماذج البروتوكولات التي يعطيها أحمد فريدون بك كألقاب لبادشاه الإسلام:

1 ـ صاحب الجلالة المظفر، الموفق السلطان الخاقان بعونه (تعالى)، حليته الخفية، النصر البادشاه، مجده عالٍ كالسماء، ملك الملوك، أشباه الكواكب، تاج الرأس الملكي، ظل الرزاق، غاية الملكية، خلاصة كتاب الحظ، سمت العدالة وكمال مد الجلالة، بحر الإحسان والإنسانية ومنجم لآلي الكرم وينبوع ذكريات الشجاعة وكشف أنوار السعادة، رافع رايات الإسلام، كاتب العدالة على صفحات الزمان، سلطان البرين والبحرين وخاقان الشرقين والغربين وخادم الحرمين الشريفين، سمي رسول الإنس والجن السلطان محمد خان لا زال جنابه المبجل إلى الأبد محطٌ رجال الأولياء وحفظ الله بلاطه الجليل من دنس النقص والعيب.

2 ـ الجالس على عرش السلطنة الجليلة، اللابس حلي العدل والصلاح، حارس حدود الإسلام، فارض حرب الانتقام، أقوى سلطان

وأعدل وأشرف خاقان، فاتح أبواب السعادة للبشر، معطي أنواع العطايا في الغرب والشرق، أزهد السلاطين في القول والعمل، أكمل الخاقانات في العلم والفضيلة (أدام الله القدير إدارته ومملكته ومجد الله معاونيه ومساعديه كما أجلّ في حرمته أبداً ودائماً حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو الحميد المجيد) صاحب الجلالة منزل الخلافة.

هذا الكتاب

لا شكَّ أنَّ المكتبة العربية قد ظفرت بتعريب هذا الكتاب بسفر جليل الشأن في تاريخ الحضارة الإسلامية منذ التوسع الإسلامي وإنشاء الخلافة بعد وفاة الرسول الأعظم (ص) حتى زوالها في زوال الدولة العثمانية من القرن العشرين سنة الأولى من القرن الماضي.

وقد تعرّض مؤلفه السير توماس آرنولد إلى الظروف التي قامت فيها الخلافة وقارن ذلك بالبابوية المسيحية وأوضح الفوارق الأساسية بينهما و كيف أنَّ الخلافة الإسلامية حين تأسست لم تأت لغرض إقامة أمبراطورية إسلامية شأن البابوية التي هدفت إلى أمبراطورية رومانية مقدّسة ثم عرَّف الخلافة تعريفاً صادقاً مستعرضاً في ذلك آراء الفقهاء والفلاسفة فيها وفي شرائطها ومميزاتها إلى غير ذلك ممَّا يوجب على كل مثقف اقتناء هذا الكتاب لما فيه من فائدة تاريخية فلسفية كبيرة.

isbn 978-9933-521-47-9



